تاريخ الطّبريّ وتشكيل الوعي بالهُويّة عند العرب المسلمين

أ.د. سعيد عبد الهادي المرهج[1]

المُلخّص:

لا تتشــكّل هويّة الأمّة إلّا بخلق أســاطيرَ تُعزّز الرّوح القوميّة، وتخلق نسَــبًا مشــتركًا يجمع الفرقاء تحته، وبمرور الزّمن تُصبح هذه الأســاطيرُ حقائقَ يجب الدّفاع عنها، وكان العامــل الدّينيّ أساسًــا في عمليّة الدّفاع تلك، فما وُلِّد من أســاطيرَ ورموزٍ، مع تبنّي القبائل العربيّة الإســلامَ ديانةً، أصبحت نصوصًا شــارحةً للمتن المقدّس (القرآن) وبأســانيدَ قُدِّس أصحابُها لســابقتهم في الإســلام، ومن ثمّ تقدّس النّصّ الشّــارحُ نفسُــه، وأصبحنا نســمع الشّــيوخ والوُعّــاظ، بل المؤرّخين أجمعَهم، وليس الإخباريّون فحســب، يُردّدونه ويســعون لتوظيــف مجمل المعــارف التّاريخيّة لبيان صحّتــه، فكان أن تحوّل النّصّ الشّــارحُ إلى متنٍ مشروحٍ.

فضــلًا عن خلق أســاطيرِ الــولادة، نحن بحاجة إلى تعظيم الصّراع مع آخَــرَ يُبلور الهُويّة ببُعدهــا الآنيّ. فــكان أن أصبحت اللّغة مفتاحًا في هذا، ووُزّع البــشر بين (عربيّ/ أعجميّ) ونحــن ندرك أنّ العُجمة صفةٌ للحيوان، وهذه مركزة للذّات أخرى. لكنّ ما لا خلاف عليه أنّ الــصّراع مع الأمم المجاورة (الفرس والرّوم خاصّة) لغةً وديناً، فضلًا عن الصّراع السّــياسيّ بأبعاده المعروفة، كان دافعًا للتّمسّــك بأســاطيرِ الولادة وتعزيز وجودها في عقل كلّ عربيّ، فضلًا عن كونه، إلى جانب الحاجة الدّينيّة، كان دافعًا أساسًا في العناية بالعلوم العربيّة، وفي ظلّ هذا الصّراع نشــأت علومُ اللّغة والنّحو والمغازي والسِّيَر والحديث والفقه وعلوم القرآن

(١) باحث أكاديميّ متخصّص بالأدب العربيّ الحديث، يشغل عمادة كلّيّة دجلة حاليًّا.

والتّرجمة..إلخ. هكذا أصبحنا بفضل ما سبق أمام أمّة بهُويّة مكتملة الأركان (النّسب، اللّغة، الدّين).

في ضوء هذا يُفهم تاريخ الطّبريّ الذي يُعدُّ امتدادًا لتفسيره، ومن ثمّ يمكن القول بأنّه مرآة للقرن الثّالث للهجرة، قرن التّشكّل (الهوويّ) وبروز الأمّة... وقد كان جهدنا فيما بحثناه، منصبًّا على قراءة المتن التّاريخيّ لمرحلة ما قبل الإسلام بوصفه مقدّمًا على أنّه صورة لهويّة تشكّلت بعد تشكّل الهويّة نفسها. أي أنّ الماضي شكّله الحاضرُ لا العكس. وأنّ الحاضر (تاريخ الطّبريّ- القرن الثّالث للهجرة) كان المدوّنة الأمّ التي حَوَتْ ما قبلها، ومن جوفها وُلدت المُدوّنات التّاريخيّة اللّاحقة، وفي ضوء هذا يمكن عده المثالَ الأكثر مُحاكاة لصورة الأمّة. ومن ثمّ جاءت قراءتُنا لبيان هذا بوعيٍ بأهميّة المتن المدروس، وبمسعى للإفادة من المناهج الحديثة في دراسة التّاريخ.

الكلمات المفتاحيّة: الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، الإسلام، العرب، الأمّة، الأسطورة، تشكّل الهويّة، القرن الثّالث للهجرة.

١ - مدخل:

اعتاد عديدٌ من الكُتّاب الرّبط بين تدوين التّاريخ الإسلاميّ والسّلطة الحاكمة، حدّ القول بوجود تاريخٍ شعبيٍّ مُغيّبٍ وآخرَ سلطويٍّ مُعلنٍ. وفي حقيقة الأمر إنّ مَن يُمحِّص أقوالًا كهذه لن يصل إلى نتيجة شافية. فلن نستطيع القول بعدم وجود تأثير للسّلطة، إن لم يكن مباشرًا فهو غير مباشر، لكنّه لا يتخطّى تأثير الشّعبيّ في هذا التّاريخ. إذ إنّ المؤرّخين الكبار الأوائل: الدِّيْنَوَرِيّ (ت ٢٨٢هـ) واليَعقوبيّ (ت ٢٨٤) والمسعوديّ (ت ٣٤٦هـ) لم يكونوا بعيدين عن (تهمة التّشيّع)، وهي تهمة يمكن ربطها بما هو شعبيّ، لكون التّشيّع كان حركةً شعبويّة إلى حدٍّ كبير. وإذا كنّا لا نحتاج إلى إثبات هذا الأمر أو نفيه بشأن الثّاني والثّالث، قد قيل كثير عن تشيّعهما، فإنّ صاحب الوافي بالوفيات يقول حين يذكر الدِّيْنَوَرِيّ: «أَحْمد بنُ دَاوُودَ بنُ ونند، أَبُو حنيفَةَ الدِّيْنَوَرِيّ. أَخذ عَن البصريّين والكوفيّين، وأَكْثرَ عَن ابن السِّكّيت، وكان نحويًّا لُغويًّا مُهندسًا مُنجِّمًا حاسِبًا راويةً ثِقَة فيما يرويه ويحكيه»[٢]، وابن السِّكّيت (ت ٢٤٤هـ) كان شيعيّا. وهذا إن لم يؤكّد تشيّعهم، فإنه يؤكّد نأيهم بأنفسهم عن السّلطة، والأمر نفسه عُرف به الطّبريّ، فهو صاحب مذهب قائم بنفسه، لم يطرق أبواب السّلاطين أو يتزلّف إليهم. ومن ثمّ فالقول بأنّ المدوّن يمثّل تاريخ سلطة قولٌ لا يسنده دليل، لكنّه تاريخ ملوك، وشتّان بين الأمرين؛ فكل تاريخ سياسيّ يخضع لمتسلسلة الملوك، ولا يستطيع الابتعاد عنها، يقول الطّبريّ مُعلّلا عدم ذِكْرِ بعض الأمم: «فأمّا سائر الأُمم غير الفرس، فإنّه غير ممكن الوصول إلى علم التّاريخ بهم، إذ لم يكن لهم مُلْكٌ مُتّصلٌ في قديم الأيّام وحديثها إلّا ما لا يمكن معه سياق التّاريخ عليه وعلى أعمار ملوكهم، إلّا ما ذكرنا من ولد يعقوبَ إلى الوقت الذي ذكرتُ»[٣]. نحن

(٢)«الوافي بالوَفَيَات»، الصّفديّ،(بتحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى): ٦/٢٣٣.

أمام أُمّتين: أمّة شكّلت جزءًا من الهويّة الإسلاميّة (الفـرس والقوميّـات الدّاخلة في الإسـلام)؛ الأمّة المقابلـة (اليهود والأمم المسـيحيّة- الـرّوم)، التي تشـكّلت الهويّة الإسلاميّة بالصّراع الفكريّ معها. ونريـد بالأمّة هنا: كلّ «مجتمع بشريّ له تسـمية وتعريـف ذاتـيّ، يبني أفراده أسـاطيرَ وذكرياتٍ ورموزًا وقِيمًا وتقاليدَ مشتركةً، ويقطنون موطنًا تاريخيًّـا يتماهَون معـه، ويخلقون ثقافـةً عامّة مميّزة وينشرونهـا، ويلتزمون بأعـرافٍ وقوانينَ عامّةٍ مشتركةٍ»[٤].

ثمّ يُعرّف لنا أنتوني سـميث (الهويّة القوميّة) بالقول:« إعادة إنتاج وإعادة تفسـير مسـتمرّتان لنمـط القِيَم، والرّمـوز، والذّكريات، والأسـاطير، والتّقاليـد التي تُكوِّن التّراث المُميِّز للأمم، وتماهي الأفـراد مع ذلـك النّمط وذلك الـتّراث»[٥]. وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبـار أنّ الكهَنة والكتَبة هم كانوا الأوصياء على (شـبكة الأساطير- الرّموز) للذّاكرة العِرقيّة من جيل لجيل. إذن نحن أمام تاريخٍ تولّد بالصّراع مع طرفٍ ألبسَـه الدّينُ لباسه (اليهود)، فلبس اللّبـاس نفسـه، والدّين متسلسـلة أنبياء. صورة سلطة النّبيّ وعالَمه مولِّدة لصور السّلطات اللّاحقة، التـي بدَورها تتمحور حول أشـخاص:

(٣)«تاريخ الطّبريّ (تاريخ الرّسل والملوك)»، الطّبريّ، (بتحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم): ١/ ٣١٦.

(٤)«الأسس الثّقافيّة للأمم (الهرميّة والعهد والجمهوريّة)»، أنتوني دي سميث، (ترجمة: صفيّة مختار): ٤٢.

(٥)«القومية العربيّة (الأمّة والدّولة في الوطن العربيّ- نظرة تاريخيّة)» يوسف الشّويري: ٣٥.

«عن الشّـعبيّ قال: لمّا هبط آدمُ من الجنّة، وانتشر ولـده أرّخ بنوه من هبوطِ آدمَ، فكان ذلك التّاريخ حتّى بعث اللهُ نوحًا فأرّخوا ببعثِ نوحٍ، حتّى كان الغـرَقُ، فهلَك مَن هلَك ممّن كان على وجه الأرض. فلمّا هبط نوحٌ وذريّته وكلُّ مَن كان في السّفينة إلى الأرض، قسم الأرضَ بين ولده أثلاثًا: فجعل لِسامٍ وسـطًا مـن الأرض، ففيها بيت المقـدس، والنّيل، والفرات، ودجلةُ، وسـيحانُ، وجيحانُ، وفيشونُ، وذلك مـا بين فيشـونَ إلى شرقي النّيـل، وما بين منخـر ريـح الجنـوب إلى منخر الشّـمال. وجعل لِحامٍ قسمَه غربي النّيل، فما وراءه إلى منخر ريح الدّبور. وجعل قسمَ يافثَ في فيشونَ فما وراءه إلى منخر ريح الصّبـا، فكان التّاريخ من الطّوفان إلى نـارِ إبراهيمَ، ومن نارِ إبراهيمَ إلى مبعثِ يوسـفَ، ومن مبعثِ يوسـفَ إلى مبعث موسى، ومن مبعث مـوسى إلى مُلْكِ سُـليمانَ، ومـن مُلْكِ سُـليمانَ إلى مبعثِ عيسى بنِ مريمَ، ومن مبعث عيسى بنِ مريمَ إلى أن بُعِث الرّسـول (ﷺ)»[٦]. فإذا كان التّاريخ السّابق تمحور حول الأنبياء، وكذا الجغرافيا، فإنّ التّاريـخ اللّاحق تمحور حول الرّسـول وخلفائه، ومن ثمّ الأمويّون، فالعبّاسـيّون... تاريخ رجال لا تاريخ شـعوب. تاريخ رجال لم يخرج عن مخيال الدّينيّ بـكلّ معجزاته التي رافقت سِـيَر الأنبياء. فهل يمكن أن نتحدّث عن حقائقَ أم عن حكايات؟ حكايـات المقدّس (الإلهـيّ- النّبويّ) وصراعه مع المُدنّـس (البـشريّ- الأرضيّ). لـم يكـن التّاريخ محكومًـا ببُعـدَي السّـابق والحـاليّ، بـل بالأعلى

(٦)«تاريخ الطّبريّ»: ١/ ١٩٣.

والأسفل. إنّه تاريخٌ صنعته مخيّلةٌ دينيّةٌ استجابةً لأيديولوجيّة حاكمة. بالمقابل نرى أنّ الهُويّة تحرّكت من القَبَليّة إلى الأُمميّة، تشكُّلُ الدّولة الدّينيّة أعاد تشكيل الهويّة ولم يمحُ الرّوح القبَليّة. ومع هذا التّحوّل برز نوعان من الصّراع: خارجيّ (دار الإسلام/ دار الكفر)[٧]، وداخليّ (العرب/ الموالي)[٨]. وربّما ما حصل في ثورة المُختار الثّقفيّ (ت ٦٧هـ) يعطينا صورة عن الصّراع الدّاخليّ، وكان استعمل «على حرسه كيسانَ أبا عمرةَ مولى عرينةَ، فقام ذات يوم على رأسه، فرأى الأشراف يُحدّثونه، ورآه قد أقبل بوجهه وحديثه عليهم، فقال لأبي عمرةَ بعضُ أصحابه من الموالي: أما تَرى أبا إسحاقَ قد أقبل على العرب ما ينظر إلينا! فدعاه المختارُ فقال له: ما يقول لك أولئك الذين رأيتُهم يكلّمونك؟ فقال له، وأسرّ إليه: شَقّ عليهم- أصلحك اللهُ- صرفَك وجهَك عنهم إلى العرَب، فقال له: قل لهم: لا يشقنّ ذلك عليكم، فأنتم منّي وأنا منكم، ثمّ سكتَ طويلًا، ثمّ قرأ: (إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ)[٩] قال: فحدّثني أبو الأشعر موسى بن عامر قال: ما هو إلّا أنْ سمعها الموالي منه، فقال بعضهم لبعض: أبشروا، كأنّكم والله به قد قتلَهم»[١٠]. لا شكّ أنّ هاتين الثّنائيّتين الأكثر حضورًا وفاعلية من دون أن ننسى التّوزيع بين خواصٍّ وعوامٍّ أو أهل السُّنّة والمُبتدِعة. لكنها في الغالب تُقسَر تحت التّصنيفَين السّابقَين.

(٧) يذهب رضوان السّيّد إلى أنّ أوّل تحديد تقريبيّ لمعنى هذا المصطلح يعود إلى الإمام أبي حنيفةَ(ت ١٥٠هـ). «سياسيّات الإسلام المعاصر»، رضوان السّيّد: ٧١٠. وحدّهما أبو يعلى الحنبليّ(ت ٣٥٨هـ)بقوله:«وكلّ دار كانت الغلَبةُ فيها لأحكام الإسلام دون أحكام الكفر فهي دار إسلام، وكلّ دار كانت الغلَبةُ فيها لأحكام الكفر دون أحكام الإسلام فهي دار كفر. وإنّ الدّار لا تخلو من أن تكون دار كفر أو دار إسلام ».«المعتمَد في أصول الدّين »، أبو يعلى الحنبليّ، (تحقيق: وديع زيدان): ٢٧٦.

(٨) يُنظر:«مدرسة التّاريخ العراقيّة إلى القرن التّاسع »، عبد العزيز الدّوري، (ضمن كتاب: مؤرّخو العرب والإسلام حتّى العصر الحديث): ٨١. ولا يمكن أن ننسى التّوزيع بين (الخاصّة/ العامّة) وهو توزيع مُبكّر، يتجلّى لنا في رسالة الخليفة المأمون، بقوله «وقد عرف أميرُ المؤمنين أنّ الجمهورَ الأعظمَ والسّوادَ الأكبرَ من حشو الرّعيّة وسفلة العامّة ممّن لا نظَر له ولا رويّة ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته والاستضاءة بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق أهل جَهالة بالله، وعمًى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به»... ثمّ يقول:«ثمّ همّ الذين جادلوا بالباطل فدعَوا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السّنّة، وفي كلّ فصل من كتاب الله قَصص من تلاوته مبطل قولهم، ومكذّب دعواهم، يردّ عليهم قولهم ونِحلتهم، ثمّ أظهروا مع ذلك أنّهم أهل الحقّ والدّين والجماعة، وأنّ مَن سواهم أهل الباطل والكفر والفُرقة، فاستطالوا بذلك على النّاس، وغرّوا به الجُهّال حتّى مال قوم من أهل السّمت الكاذب، والتّخشُّع لغير الله، والتّقشّف لغير الدّين إلى موافقتهم عليه، ومواطأتهم على سيِّئ آرائهم». نرى هنا اتساعَ دائرة الكفر لتشمل كلّ مَن لم يَسر بطريق (أهل السّنّة والجماعة) وهو ما تكفّل المأمون هنا محاربته، ولم يستطع الانتصار عليه إلّا مؤقّتًا.«تاريخ الطّبريّ»: ٨/ ٦٣٢- ٦٣٣. أمّا بشأن الانقسام بين العرب والموالي، فيُنظَر:«ضُحى الإسلام»، أحمد أمين، (مؤسّسة هنداوي): ٢٩- ٥٧.

(٩) الآية ٢٢ من سورة السّجدة.

(١٠) «تاريخ الطّبريّ»: ٦/ ٣٣. قد يظنّ البعض أنّه أراد بها قتَلة الإمام الحسين. لكنّه كان يرمي إلى ما هو أبعد من ذلك، كما نستبين من الحادثة المذكورة.

٢- في الكتاب وكاتبه:

لا خـلاف عـلى أنّ محمّدًا بـن جرير بن يزيدَ الطّـبريّ (٢٢٤- ٣١٠) المولـود في آمُـلَ والمُتـوفَّى ببغدادَ رأسُ المؤرّخين المسـلمين وإمامهم، وكتابه (تاريخ الأمم والملـوك[١١]): «الزّاهي على المؤلّفات، والزّائـد عـلى الكتـب المُصنّفـات، قد جمـع أنواع الأخبار، وحوى فنون الآثار، واشـتمل على ضروب العلـم. وهـو تكثُـر فائدتـه، وتنفـع عائدته» ولا يكتفي المسـعوديّ بمـدح الكتاب بـل يَعدِل نحو مؤلّفـه: «وكيـف لا يكون كذلـك، ومؤلّفـه فقيه عصره، وناسك دهره، وإليه انتهت علوم الأمصار، وجملة السّـنن والآثار»[١٢]، وليـس في هذا الكلام مبالغـة، إذ شـكّل تاريـخ الطّبريّ نهايـة مرحلة وبداية أخـرى. نهاية لمرحلة بدأت بكتب الغزوات وخُتمت بـ(تاريخ اليَعْقُوبِـيّ) أَبي العَبَّاسِ أَحْمَدَ بْنِ إِسْـحَاقَ (ت ٢٩٢) الذي يمكن عده إلى جانب (الأخبار الطّوال) لأبي حنيفةَ الدِّيْنَوَرِيّ (ت ٢٨٤) مُمهّـدات الكتابة التّاريخيّة العربيّة- الإسـلاميّة، وقد شكّل قمّتها، بلا منازع، «تاريخ الطّبريّ»[١٣]، إذ لم يخـرج اللّاحقون عـن منهجيّته بخطوطها الرّئيسـة. وقد ذهب أسـتاذُنا عبد العزيز الدّوري إلى القـول: «وظهـرت بالتّالي، وخاصّـة في القرن الثّاني للهجرة مدرستان للتّاريخ: مدرسة المغازي في المدينة، ومدرسة الأخباريّين في الكوفة والبصرة. ولـم تكن جهـود المدرسـتين منفصلـةً تمامًا، بل كان هنـاك تأثـير متبـادل في الأسـلوب والمفاهيم التّاريخيّـة. وفي القـرن الثّالثّ الهجـريّ أدى هذا التّبـادل والتّطوّر في الكتابـة التّاريخية إلى ظهور المؤرّخـين الكبار- مثـل اليعقوبـيّ (ت٢٧٢هـ) والبـلاذريّ (ت ٢٧٩هـ) والطّبريّ (ت ٣١٠هـ) ليمثّلـوا اسـتقرار المفاهيـم والأطُر في الدّراسـات التّاريخيّة»[١٤].

يُحدّد لنا الحمَويّ زمن انتهاء الطّبريّ من إملائه تاريخِه بقوله: «فرغ مـن تصنيف كتاب التّاريخ ومَـن عرضه عليه في يـوم الأربعاء لثلاثٍ بقينَ من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثمئة، وقطعه على آخر سنة اثنتين وثلاثمئة»[١٥].

---

(١١) ورد تحت هذا العنوان في «تاريخ بغدادَ »: ٢/ ١٦٣، و «كشف الظّنون»: ١/ ٢٩٧. وأورد صاحب «معجم الأدباء» تسميةً أخرى: (تاريخ الرّسل والأنبياء والملوك والخلفاء) يُنظَر:«معجم الأدباء»: ١٨/ ٤٤. فيما جاءت طبعة دار المعارف تحت مسمّى (تاريخ الرّسل والملوك)، وذكره فؤاد سزكين تحت عنوان (أخبار الرّسل والملوك). يُنظَر:«تاريخ التّراث العربيّ »، مج١: ج٢/ ١٦٢.

(١٢)«مروج الذّهب»: ١/ ٢٣.

(١٣) ذهب كثيرٌ من قدامى الكُتّاب ومُحْدَثيهم إلى عده «ذروة التّأليف التّاريخيّ عند المسلمين في القرون الثّلاثة الأولى». يُنظَر:«الإمام الطّبريّ»، محمّد الزّحيليّ: ٢٠٩. ويُنظَر:«علم التّاريخ عند المسلمين»، روزنثال: ١٨٦- ١٨٧. وذهب شاكر مصطفى إلى القول بأنّه«بلغ به التّدوين التّاريخيّ نهاية عهد التّكوين والنّشأة قمّة مِن قِمم التّاريخ الحقيقيّ».«التّاريخ العربيّ والمؤرّخون»، شاكر مصطفى: ٢٥٣.

(١٤)«التّكوين التّاريخيّ للأمّة العربيّة»: ٨٩.

(١٥)«معجم الأدباء»: ١٨/ ٤٤.

قسّم الطّبريّ مادّة تاريخه بين قسمين أساسين:

القسم الأوّل تكلّم فيه على بدء الخليقة ومهبطِ آدمَ وقصّة قابيلَ وهابيلَ، ثمّ تحدّث عن الأنبياء بتسلسل. ومن بعد أرّخ لبعض الأمم السّابقة للإسلام؛ فتحدّث عن الفُرس والرّوم وبني اسرائيلَ، وملوك اليمن والدّويلات العربيّة القديمة: «قال أبو جعفر: وأنا ذاكرٌ في كتابي هذا من ملوك كلّ زمان، من لدُن ابتدأ ربُّنا جلّ جلاله خلْق خلقه إلى حال فنائهم، مَن انتهى إلينا خبره ممّن ابتدأه اللهُ تعالى بآلائه ونعَمه فشكر نعَمه، من رسول له مرسل، أو ملك مسلّط، أو خليفة مُستخلَف، فزاده إلى ما ابتدأه به من نعَمه في العاجل نعمًا، وإلى ما تفضّل به عليه فضلًا، ومن آخر ذلك له منهم، وجعله له عنده ذخرًا، ومَن كفَر منهم نعَمه فسلبَه ما ابتدأه به من نعَمه، وعجّل له نقَمه، ومَن كفر منهم نعَمه فمتّعه بما أنعم به عليه إلى حين وفاته وهلاكه، مقرونًا ذِكر كلّ مَن أنا ذاكره منهم في كتابي هذا بذكر زمانه، وجُمل ما كان من حوادث الأمور في عصره وأيّامه»[١٦]. وفي هذا القسم الأوّل اتّبع السّرد الموضوعيّ للحوادث.

في حين اتّبع المنهج الحوليّ في القسم الثّاني، المتعلّق بتاريخ الإسلام، الذي بدأه بانطلاق الدّعوة الإسلاميّة وختمَه بسنة ٣٠٢هـ/ ٩١٤م[١٧].

وقد سار في تاريخه على طريقة المُحَدِّثين بالتزامه بالإسناد، من دون النّظر في جَرح السّند أو تعديله، إذ ترخّص في هذا الأمر كثيرًا. فكان كتابه وعاءً للمرويّات الشّفاهيّة السّابقة والمدوّنات[١٨] التي لم تُحفَظ لنا إلّا به: «وليعلم النّاظر في كتابنا هذا أنّ اعتمادي في كلّ ما أحضرتُ ذِكره فيه ممّا شرطتُ أنّي راسمُه فيه، إنّما هو على ما رَويتُ من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مُسندها إلى رواتها فيه، دون ما إدراك بحجج العقول، واستنباط بفكر النّفوس، إلّا اليسير القليل منه، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين، وما هو كائن من أنباء الحادثين، غير واصل إلى مَن لم يشاهدهم ولم يُدرك زمانهم، إلّا بأخبار المُخبرين، ونقل النّاقلين، دون الاستخراج

(١٦)«تاريخ الطّبريّ»: ١/ ٦.

(١٧) عند كتابته عن الإسلام رتّب الحوادث زمنيًّا، وقد ابتدأ بعد عامٍ من الهجرة. فإذا كانت الحادثة تستغرق أعوامًا يقوم بتجزئتها وإكمال الحديث عنها. وهو مرّة يذكر حوادث السّنة مُجمَلة ثمّ يعود لتفصيل كلّ حادثة. أو يذكرها بالتّفصيل ثمّ يذكر التي تليها، وهكذا.

(١٨) ويمكن تقسيم الصّيغ التي استعملَها الطّبريّ إلى مجموعتَين، تشير إحداهما إلى النّقل الشّفويّ مثل: (حدّثني، حدّثنا، وحُدّثتُ)، وتشير الأخرى إلى النّقل عن كتاب أو مدوّنة، كقوله: (ذَكر، وقال، وزَعم)، ونلاحظ في بعض هذه التّعابير إشارات أخرى عن طريقة الأخذ، فكلمة (حدّثنا) قد تشير إلى وجود الطّبريّ في حلقة يستمع إلى شيخها، وتشير كلمة (حُدّثتُ) إلى أخذه من مصدر بصورة غير مباشرة، أما التّعبيران (ذكر، وزعم)، فيُشيران إلى نوع من الشّكّ وعدم الثّقة، أما تعبير (كذلك قال) فيُشير إلى اهتمامه بإيراد عدّة روايات عن الموضوع أو الخبر الواحد. يُنظَر:«الطّبريّ»، أحمد محمّد الحوفي:١٨٨-١٩١. يفصّل فيها الحديث عن مصادره ومَن أخذ عنهم... وقد تساهل الطّبريّ أكثر فيما دوّنه عن عصره، نلمس هذا في إسناده:«ذكر لي بعضُ أصحابي» و«ذكر لنا جماعةٌ من أصحابنا» و«ذكره مَن رآه وشاهده» و«حدّثني جماعةٌ من أهل...». يُنظَر: «منهج الطّبريّ في تاريخه»، د. محمّد آمحزون: ٢. و«الإمام الطّبريّ»، د. محمّد الزّحيلي: ٢٣٤.

بالعقول، والاستنباط بفكر النّفوس، فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين ممّا يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنّه لم يعرف له وجهًا في الصّحّة، ولا معنًى في الحقيقة، فليعلم أنّه لم يؤت في ذلك مِن قِبَلنا، وإنّما أُتي مِن قِبَل بعض ناقليه إلينا، وإنّا إنّما أدّينا ذلك على نحوِ ما أُدّيَ إلينا»[١٩]. إذن نحن أمام سلسلة إسناد، الأمر الذي يوهم بصدقيّة وقوع الحدَث، فالخبر المكذوب المُستشنَع أُدّي إلى القارئ كما وصل إلى الكاتب، وهذا يؤكّد ما سبَق أن أشرنا إليه من أنّنا أمام متن سرديّ (قصصيّ) يشتغل فيه الخيال على صنع متنٍ غايته إبراز إعجازيّة التّاريخ (الإبراهيميّ) وإيجاد مساحة للفرع الإسماعيليّ (العدنانيّة) إلى جانب الفرع الإسحاقيّ (الإسرائيليّة) ومن ماضٍ معجِز إلى حاضر ساد فيه العرب بهويّتهم الإسلاميّة (الإبراهيميّة) عالَمهم. هذه السّيادة بحاجة إلى هذا الماضي الإعجازيّ؛ ومن ثمّ فنحن أمام صورة صادقة لِما تختزنه عقول معاصري الطّبريّ عن ماضيهم. أمّا تسمية المتن بـ(تاريخ الطّبريّ) فهو تعبيرٌ دقيق، إذ يعكس دور (وجهة النّظر) أي (عين السّارد) التي هي مَن يحدّد الزّاوية التي يتمّ من خلالها سرد الواقعة التّاريخيّة (القصّة). ومن ثمّ ليست من حادثة مرويّة في هذا المتن المسمّى (تاريخ الطّبريّ) إلّا وهي مَحكومة بوجهة النّظر الطّبريّة. فعندما يَختصر عقدًا من السّنين بجملة، ويمدّ آخَر لعشرات الصّفحات، نُدرك أنّ «التّاريخ يفرَز مثل الرّواية»[٢٠] محكومًا بوجهة نظر الرّاوي (المؤرّخ).

٣ـ المتخيّل التّاريخيّ

برغم أنّ مصطلَحات (علم الحديث) انسحبَت على رواة التّاريخ؛ فكان الاتّهام بالتّدليس والتّضعيف شائعًا، لكن مَن يقرأ تاريخ الطّبريّ، وهو المُحدِّث، يكتشف أنّه كان عالِمًا بالاختلاف الكبير بين المجالَين (الحديث- التّاريخ) لذا ترخّص كثيرًا في رواته، وأخَذ ممّن لم يأخذ الحديث منه[٢١]، وهذا

(١٩)«تاريخ الطّبريّ»: ١/ ٧. ويعود لتكرار هذا القول، والتّكرار هنا غايته تأكيد الشّكّ بعقلانيّة ما يروي:«قد قلنا فيما تقدّم من كتابنا هذا إنّا إنّما نعتمد في معظم ما نرسمه في كتابنا هذا على الآثار والأخبار عن نبيّنا (ﷺ) وعن السّلف الصّالحين قبلنا، دون الاستخراج بالعقول والفكر، إذ أكثره خبر عمّا مضى من الأمور، وعمّا هو كائن من الأحداث، وذلك غير مدرَك علمه بالاستنباط الاستخراج بالعقول؛ فإن قال: فهل من حجّة على صحّة ذلك من جهة الخبر؟ قيل: ذلك ما لا نعلم قائلًا من أئمّة الدّين قال خلافه. فإن قال: فهل من رواية عن أحد منهم بذلك؟ قيل: عِلم ذلك عند أهل العلم من السّلف كان أشهَر من أن يُحتاج فيه إلى رواية منسوبة إلى شخص منهم بعينه، وقد رُوي ذلك عن جماعة منهم مُسمّين بأعيانهم».«تاريخ الطّبريّ»: ١/ ٥٨.

(٢٠) يُنظَر:«كيف نكتب التّاريخ»، بول فين، ترجمة: سعود المولى ويوسف عاصي: ١٤.

(٢١) يُنظَر:«صحيح وضعيف تاريخ الطّبريّ»، محمّد بن طاهر البرزنجي ومحمّد صبحي حسن حلّاق: مقدّمة المُحقّقَيْن، إذ تناولا بالتّفصيل مَن أخذ عنهم. ويُنظَر:«عليّ ومعاوية في الرّواية الإسلاميّة المبكّرة»، إيلرلنغ ليدوغ بيترسن، (ترجمة: عبد الجبّار ناجي«: ٢٦٥- ٢٧٢. وفيها مناقشة تفصيليّة لمصادر الطّبريّ.

التّرخّـص إذ يراه البعض حيادًا، نظَر إليه آخَرون على أنّه مَفسـدة، وبعيـدًا عن هـذا وذاك نرى أنّ الطّبريّ كان يسعى للوصول إلى (المحاكاة الأمثل) للحـدَث التّاريخـيّ؛ مِن هنـا نُـدرك أهمّيّة تكرار جملة «سـأصفه لك كأنّك تراه»[٢٢] عند ذِكر عديدٍ مـن الحوادث، إنّه يبحث عـن الرّاوي الذي يصف الحدث فيجعل القارئ كأنّه يراه لا يسـمعه فقط. إنّه السّـارد النّموذجـيّ، هذا ما يبحـث عنه، وقد وجـده فيمَن ضعّفه المحدّثون فلـم يعبأ، فالمرويّ التّاريخيّ بمجمله ظنّيّ. وهذا وليد تاريخٍ سـابقٍ من التّرخّـص عرفتْه كتُب السِّـيَر والمغازي، لذلك نُظر إليهـا بوصفها كتـب أدب وتاريخ، لا تاريخ فحسـب: «إنّ كتب السِّـيَر والمغـازي جَمعت بين العلم والفنّ، جانب العلم فيها يتمثّل في أنّ السِّـيَر والمغازي تعتمد أساسًا على المادّة التّاريخيّة، فهي تحكي عن شـخوص تاريخيّـين، وأحداث ووقائعَ تاريخيّة في معظمها. وأمّـا جانب الفنّ فيتمثّل في الطّابع القَصصيّ الذي تُصاغ فيه هذه المادّة، فهي إذن مادّة تاريخيّة تُعرَض في قالب قَصصيّ»[٢٣].

مَن ينظر نظرة فاحصة في قسـم الكتاب الأوّل يُـدرك أنّ الخيط الممدود بين المتخيّل والواقعيّ قد سُـحب نحو المُتخيّل بشـكله الدّينيّ عـبر اعتماد المرويّات الدّينيّـة الكتابيّة (توراتيّـة وقرآنيّة) أو مـا عُرف بالإسرائيليّات؛ ممّـا رواه عُبيد بن شريّة ووهـب ابن مُنبّـه. وهي أخبار شـبيهة بالتّاريخ، بحسـب كولِنجوود، أكثر منها تاريخًا[٢٤]. لكونها آتيـة من مصدر عُلويّ. والمؤرّخ يمنح تلك الأخبار صورةً حكائيّـة عند سرده لها: «وهـذه المرويّات كلّهـا لا يمكن إدراجها في مجال مـا هو تاريخيّ، لكنّهـا شـكّلت الإطـار للمدوّنـة التّاريخيّـة، هذا التّداخـل يُبيـح لنا القـول إنّ التّاريخ الإسـلاميّ كان حكايـةً كـبرى (حكايـة الخَلـق والوجـود) ولّـدت يقينيّاتهـا مـن حاكميّـة النّـصّ القرآنيّ، وليس من حاكميّـة المعقوليّة العلميّة»[٢٥]، وهكذا نـرى المؤرّخين الأوائـل، وليس الطّبريّ فحسـب، بتسريدهـم يحوّلـون الأخبـار إلى مقـام القصّـة (الخُرافة، Mythos) فيجعلون لها بدايةً ووسـطًا ونهايـة. أي يمنحونهـا حبكـة قصصيّـة، هـذه الحبكة هي التي تمنح الأحداث والوقائع سرديّتها التّخييليّـة والمرجعيّة[٢٦]. وبناء الحبكة، بحسـب هايـدن وايـت: «هـو الطّريقة التي تتكشّـف بها تدريجًا سلسـلة من الحوادث المصوغـة قَصصيًّا بوصفهـا قصّة من نـوع معيّن. وبحسـب الخطّ الذي أشـار إليه نورثروب فراي في كتابه «تشريح النّقـد»، فإنّنـي أحـدّد أربعًا في الأقلّ مـن الصّيَغ المختلفـة لبنـاء الحبكة: الرّومانـسRomance ،

(٢٢) يُنظَر:«شعريّة التّاريخ الإسلاميّ (تفكيك تاريخ الطّبريّ)»، بواز شوشان، (ترجمة: حيدر الكعبي): ٥٩- ٦٠.وهو في هذا الفصل (٥٥- ١١٢) يتناول أشكال المحاكاة المختلفة.

(٢٣)«المكوّنات الأولى للثّقافة العربيّة »، الدّكتور عزّ الدّين إسماعيل، (دار الشّؤون الثّقافيّة، بغداد): ١٣٩.

(٢٤) يُنظَر:«فكرة التّاريخ »، كولِنجوود: ٥٠٦- ٥٠٧.

(٢٥)«بناء الحكاية التّاريخيّة »: ١٢٧.

(٢٦) يُنظَر:«من النّصّ إلى الفعل (أبحاث في التّأويل)»، بول ريكور، (ترجمة: محمّد برادة، وحسان بورقية):

والتّراجيديـا Tragedy ، والكوميديـا Comedy، والهجـاء Satire قـد تكون هناك صيَـغ أخرى، مثل الملحميّ، ومن المحتمَل لرواية تاريخيّة معيّنة أن تحتـوي قصصًـا موضوعة في صيغـة معيّنة؛ بوصفها أوجهًـا أو أطوارًا من مجموعة كاملة من القصـص المحبوكـة بصيغة أخرى. لكـنّ مؤرّخًا معيّنًا مضطرٌ أن يحبك مجموعة القصص الكاملة التي تشـكّل سرده في شـكل قصصيّ واحد شامل أو نمطـيّ بدئـيّ»[٢٧]، وهذا ما نتلمّسـه بوضوح في تغايـر الحبكات عند الطّـبريّ في تاريخه، إذْ لم يعتمد نمطًا واحدًا. برغم أنّ القارئ يرى أنّه وزّع المـادّة التّاريخيّة بين ما قبل الإسـلام وسـار فيه موضوعيًّا، والإسـلام ودويلاته سـار فيـه حوليًّا. لكن ضمن هذين التّقسيمَين الكبيرين نرى بناءات مختلفـة وحبـكات متنوّعة. من هنـا يمكن لنا أن نرى انعكاسًـا لهذا المتـن التّاريخيّ في العديد من كتب الأخبار الأدبيّـة، الأمر الذي يؤكّد بأنّ «كتابة التّاريـخ ليسـت شـيئًا يضـاف من الخـارج إلى المعرفـة التّاريخيّة، بل هي شيء مـن داخلها، فلا شيء يمنعنـا من الإقرار أيضًـا أنّ التّاريخ يُحاكي في كتابتـه الخاصّة أنمـاطَ الحبك التـي يتداولها تراثنا الأدبيّ»[٢٨]. فإذا كانت «الأحداث التّاريخيّة تمتلـك البِنيـة نفسـها التـي يمتلكهـا الخطـاب الـسّرديّ، وطبيعتهـا السّرديّـة هـي التـي تُميّز الأحـداث التّاريخيّة عن الأحـداث الطّبيعيّة، ولأنّ الأحداث التّاريخية تمتلك بنية سرديّة، فللمؤرّخين الحـقّ في اعتبـار القصص تمثيـلات صادقة على هذه الأحداث بوصفها تفسـيرات لها»[٢٩]. من هنا يمكننـا الاتّفاق مـع ما ذهب إليـه الطّيّب الهبري مـن أنّ «المرويـات التّاريخيّة للعـصر العباسيّ لم يُقصَد منها أصـلًا أن تنقل الحقائق، بل أن تعلّق على قضايا معيّنة، سياسـيّة أو دينيّة أو اجتماعيّة أو حضاريّة- قضايا قد تكون مسـتمدّة فعلًا من وقائـع تاريخيّـة مرتبطـة بنزاعات معيّنـة»[٣٠]، علينا أن نسـلّم أن ليس ثمّـة حقائق، بل مجموعة تصوّرات حُبكت لتكوّن صورةً مؤدلجة عن ماضٍ أُريدَ اسـتحضاره، ولا تخـرج واقعيّتها عمّا ذهب إليه جيروم برونير من أنّ «جميع أنواع السّرود بما فيهـا السّرد التّخييليّ تُعـدّ بمثابة إطار لعرض ما يتضمّنه العالَم الحقيقيّ، ويمنحه من ثمَّ قدرًا من الواقعيّة»[٣١]. فلا شكّ في وقوع سلاسل الحوادث، لكـن كيـف تـمّ اسـتحضارها؟ ومـا الواقعيّ في هـذا الاسـتحضار؟ وجود بِنية سرديّـة منضبطة تَحكمهـا حبكـة متسلسـلة يمنح أيّ حـدث بُعدًا واقعيًّا، إنّه شـبيه بأنسـنة المخلوقات العلويّة، بل لا نبتعد عـن الحقيقة حين نربط الكتابة السّرديّة بالوعـي الـسّرديّ السّـائد؛ فالمدوّنـات التّاريخيّة ما بعـد الحداثيّة تُخفي هيمنـة الحبكة، وتحاول تغييب البؤرة، ويتسـيّد فيها التّفكّك المرسوم على

٩- ١٠.

(٢٧)«شِعريّة التّاريخ »، هايدن وايت، (ترجمة: ثائر ديب): ١٣٢.

(٢٨)«الزّمان والسّرد (الزّمن المرويّ)»، بول ريكور، (ترجمة: سعيد الغانمي وفلاح رحيم)، ٣/ ٢٧٩.

(٢٩)«ميتافيزيقا السّرديّة»، هايدن وايت، (ضمن: الوجود والزّمان والسّرد، ترجمة: سعيد الغانمي): ١٨٩.

(٣٠)«شعريّة التّاريخ الإسلاميّ»: ٥٥.

(٣١)«كتابة التّاريخ بين فنّ السّرد والعلوم الدّقيقة»، فرانسواز ريفاز، (ترجمة: باتسي جمال الدّين): ١٩٧.

عكس السّائد في المدوّنات التّاريخيّة السّابقة.

بـؤرة السّرد هي السّـيرة النّبويّـة، منها يولَد اللّاحق (الحـاضر تاريخيًّا) وإليها ينتهي الماضي، لذا لا نرى هذا المتن التّاريخيّ يكتفي بالاسترجاع، وهو التّقنيّة السّرديّة المثلى في التّعامل مع الحوادث الماضيـة، بل كثيرًا مـا يعتمد الاسـتشراف: «فَلَمَّا سَمِعَ سَطِيحٌ شِعْرهُ، رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ عَبْدُ الْمَسِيحِ، عَلَى جَمَلٍ يَسِيحُ، إِلَى سَطِيحٍ، وَقَدْ أَوْفَى عَلَى الضَّرِيحِ: بَعَثَكَ مَلِكُ بَنِي سَاسَانَ، لارْتِجَاسِ الإِيوَانِ، وَخُمُودِ النِّـيرَانِ، وَرُؤْيَا الْمُوبَـذَانِ، رَأَى إِبِلًا صِعَابًا، تَقُودُ خَيْلًا عِرَابًا، قَـدْ قَطَعَتْ دِجْلَةَ وَانْتَشَرَتْ فِي بِلَادِهَا، يَا عَبْدَ الْمَسِـيحِ: إِذَا كَثُرَتِ التِّلَاوَةُ، وَبُعِثَ صَاحِبُ الْهِـرَاوَةِ، وَفَاضَ وَادِي السَّـمَاوَةِ، وَغَاضَتْ بُحَيْرَةُ سَاوَةَ، وَخَمِدَتْ نَارُ فَارِسَ، فَلَيْسَتِ الشَّامُ لِسَطِيحٍ شَـأْمًا، يَمْلِـكُ مِنْهُـمْ مُلُـوكٌ وَمَلِـكَاتٌ، عَـلَى عَدَدِ الشُّرُفَـاتِ، وَكُلُّ مَا هُـو آتٍ آتِ. ثُمَّ قَضَى سَـطِيحٌ مَكَانَـهُ»[٣٢]. النّبوءة هنا رَسـمت صـورةً دقيقة، برغـم كونهـا ملخّصة، لِمـا سـيكون عليها حال العـرب في المقبل مـن أيّامهم. وهي نبـوءة قاتلة، إذْ ما إنْ نطَق بها سـطيحٌ حتّى مات، وكأنّنا أمام رسـالة مَفادهـا: لا تجتمـع النّبوّة والنّبـوءة بعد هذا إلّا في شـخص نبيّ هذه الأمّـة. هكذا نرى أنّنا أمام سلاسـل تاريخيّة بنهايات مفتوحة: «تقتفي القصص التّاريخية سلاسلَ الحوادث التي أفضت مـن افتتاحيّات السّـيرورات الاجتماعيّة والثّقافيّة إلى نهاياتها المؤقّتة بطريقة لا تحتاج التّسلسـلات الزّمنيّـة إلى أن تقـوم بها. والتّسلسـلات الزّمنيّة، لو شـئنا الدِّقّة، مفتوحـة النّهاية. وهي، من حيث المبدأ، ليس لها افتتاحيّات؛ إذ تبدأ ببساطة حينما يبدأ الأخباريُّ تسـجيل الحوادث. وليس لها ذُرًى أو حلـول، ويمكنهـا أن تتواصل إلى مـا لا نهاية، أمّا القصص فلها شـكل يمكـن تبيُّنه حتّى عندما يكون ذلك الشّكل صورة حالة من الفوضى، وهذا الشّـكل يَحدّ الحـوادثَ المحتواة فيهـا، ويَفصلها عـن الحـوادث الأخرى التي قد تظهر في تسلسـل زمنيّ شامل للسّـنوات التي يغطّيها تكشف هذه الحوادث»[٣٣]، وهنا يمكن أن نُفيد ممّا قدّمه جاك ديموغـين الذي اقترح ما أسـماه (السّرد السّـببيّ الإيتولوجي) وهو سرد غايته تفسـير ما غمُض في عالَمنا: «يتّسـم هذا النّوع مـن السّرد بالجمع بين عالَمين منفصلين، هما: العالَم الواقعيّ الذي يشهد وجود أحد الألغاز التي يجب حلّها من جهة، [تبدأ الحكايات السّببيّة «الإيتيولوجيّة» في الغالب بسؤال مثبت في «الزّمـان والمكان الحاليّين»: لماذا تتّسـم مياه البحر بالملوحة؟ أو لماذا جلد النّمر مخطّط؟]، وعالَم خيـاليّ يتضمّن الإجابة، أي حلّ هذا اللّغز». ويقول ديموغين: «اختلق الإنسـان قصّة تُسـاعد عـلى إرضاء فضولـه؛ لأنّه عجز عـن الوقوف على أصل الجنس البشريّ... وكلّ ما يَعجز الإنسان عن فهمـه ولا يكون له أيّ تفسـير علميّ، يجد له حلًّا مؤقّتًـا أو خياليًّا في سرد الأسـاطير»[٣٤]. ونحن في الجزء الأوّل مـن تاريخ الطّبريّ أمام مجموعة من

(٣٢)«تاريخ الطّبريّ»: ١٦٨/٢. ويَرد استشراف فيه نبوءة برسول ينشر العدل: ١١٢- ١١٣، وهو يؤكّد سرديّة النّصّ التّاريخيّ. وللوقوف أكثر عند هذا يُنظَر:«بناء الحكاية التّاريخيّة عند الطّبريّ»: ١١٢.

(٣٣)«شعريّة التّاريخ»: ١٣١.

القصـص الإيتمولوجيّة التي حُبكـت بما يجعلها تُقـدّم تفسـيرًا يتوافق مع النّصّ القرآنـيّ، لذا عَدّ البعض تاريخ الطّبريّ شرحًا وتعليلًا لتفسيره.

٤ـ سرديّة الهويّة:

يذكـر الكتـاب المقـدّس في سـفر نَحَمْيَـا أنه: «ولَمَّا عَلِمَ سَـنْبَلَّطُ وَطوبيَّا وَالعَـرَبُ والعَمُّونيُّونَ والأشـدوديُّونَ بِـأَنَّ سُـورَ أُورُشَـليمَ رُمِّـمَ، لأَنَّ الفجَواتِ فيهِ أَخَذَتْ تُسَـدُّ، غَضبـوا جِداً وَتَحالَفوا كُلُّهُـم يَدًا واحدةً عَلى أَنْ يأتوا وَيُحارِبوا أُورُشَـليمَ ويوقِعـوا فيها الفَـوضى، فصلَّينـا إلى إلهنا وأقمْنا في وَجهِهم حُرَّاسًـا، نهارًا وليلًا حَـذَرًا مِنهُم»[٣٥]. فالعرب يريدون اختراق سور أورشليمَ؛ أورشليمَ الواقعيّة، كما أورشـليمَ المجازيّـة، إذ لا يمكن أن يبقـوا مجـرّد بُداة، وليـس التّخلّص مـن البداوة وليد الاسـتقرار حول نهر أو بحر، بل وليد تحوّل قيَمـيّ أيضًا، يـذوب فيه التّرحّـل التّاريخيّ مثلما ذاب التّرحّـل الجغرافيّ، ولن يكون هذا إلّا باختراق أورشليمَ، وهذا ما نجده في القسم الأوّل من تاريخ الطّبريّ، الذي نعتقد أنّه كُرّس لرسم صورة الذّات الإسـلاميّة بمقابل الآخَر= غير المسـلم، واليهوديّ بشـكل خاصّ. وعلينـا أن ندرك جيّـدًا أنّ صورة الذّات ليسـت هي الذّات[٣٦]، كمـا أنّ صورة الآخَر ليست هي الآخَر، بل إنّه بناء ثقافيّ مُتراكم، من هنا يمكـن القول إنّ الصّورة يمكن أن تتغيّر بحسـب هذا التّراكم الثّقافيّ.

يبـدأ الطّـبريُّ رسـم الصّـورة ببيـان أنّ الأنبياء كلّهم من ولد سـامٍ استجابة لدعاء أبيه نوح (ع)، والملـوك من ولد يافثَ، والعبيـد من ولد حامٍ. هذا التّوزيـع الطّبقيّ يناسـب حـاضر الطّبريّ وحال الأمّـة الإسـلاميّة في عصره، فضلًا عـن أنّه يُدخلنا (المسـلمين) ضمن الخطّ النّبويّ، وهذا الولوج إلى فضاء أغلقه اليهود على أنفسهم مُشكّلينَ به فضاءً قدسـيًّا خاصًّا، سـوّرته معتقداتهم كما سـوّروا أورشـليمَ عن غير اليهود، ففي هذا نشترك جميعًا بالحقّ في النبوّة، لكوننا أبناء سـامٍ: «إِنَّ نُوحًا دَعَا لِسَـامَ بِأَنْ يَكُونَ الأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُـلُ مِـنْ وَلَدِهِ، وَدَعَا لِيَافِثَ بِـأَنْ يَكُونَ الْمُلُوكُ مِنْ وَلَـدِهِ، وَبَدَأَ بِالدُّعَاءِ لِيَافِثَ وَقَدَّمَهُ فِي ذَلِكَ عَلَى سَـامَ، وَدَعَا عَلَى حَامَ بِأَنْ يَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ، وَيَكُونُ وَلَدهُ عَبِيدًا لِوَلَدِ سَـامَ وَيَافِثَ. قَـالَ: وَذُكِـرَ فِي الْكُتُبِ أَنَّهُ رَقَّ عَلَى حَـامَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَدَعَا لَـهُ بِأَنْ يُـرْزَقَ الرَّأْفَةَ مِنْ إِخْوَتِـهِ، وَدَعَا مِن وَلَـدِ وَلَدِهِ لِكوشَ بْنِ حَـامَ وَلِجَامِرِ بْـنِ يَافِثَ بْنِ نُوحٍ»[٣٧]، ويحدّد لنا مَواطن العرب، ونشأةَ اللّغة العربيّـة ضمن هذا الأفق القـدسيّ بالقول: «وَوَلَدُ إِرَمَ بْنِ سَـامَ بْنِ نُـوحٍ عوصُ بْـنُ إِرمَ، وَغَاثِرُ بْنُ إِرمَ، وَحويلُ بْـنُ إِرمَ فَوَلَدُ عوصِ بْنِ إِرمَ غَاثِرُ بْنُ عوصٍ، وَعَادُ بْـنُ عوصٍ، وَعُبَيْلُ بْـنُ عوصٍ وَوَلَدُ غَاثِـرِ بْنِ إِرمَ ثَمُـودُ بْنُ غَاثِرٍ، وَجُدَيْـسُ بْنُ غَاثِرٍ، وَكَانُوا قَوْمًا عَرَبًا يَتَكَلَّمُونَ بِهَذَا اللِّسَانِ الْمُضَرِيِّ، فَكَانَـتِ الْعَرَبُ تَقُولُ لِهَذِهِ الأُمَـمِ: الْعَرَبُ الْعَارِبَةُ،

(٣٤)«كتابة التّاريخ بين فنّ السّرد والعلوم الدّقيقة»: ١٩٦.

(٣٥)«الكتاب المقدّس، سفر نَحَمْيَا»: ٤، الآيات: (١ – ٤).

(٣٦) يُنظَر:«صورة الآخر (العربيّ ناظرًا ومنظورًا إليه)» تحرير: الطّاهر لبيب: ٢١.

(٣٧)«تاريخ الطّبريّ»: ١/ ٢٠٤.

لأَنَّــهُ لِسَــانُهُمُ الذي جُبِلُــوا عَلَيْهِ، وَيَقُولُــونَ لِبَنِي إِسْــمَاعِيلَ بْــنِ إِبْرَاهِيمَ: الْعَــرَبُ الْمُتَعَرِّبَــةُ، لأَنَّهُمْ إِنَّمَــا تَكَلَّمُوا بِلِسَــانِ هَــذِهِ الأُمَمِ حِينَ سَــكَنُوا بَيْنَ أَظْهُرِهِــمْ. فَعَادٌ وَثَمُودُ وَالْعَمَالِيقُ وَأُمَيْمٌ وَجَاسِــمٌ وَجُدَيْــسٌ وَطَسَــمٌ هُمُ الْعَــرَبُ، فكانَت عــادُ بهذهِ الرّمــل إِلَى حَضرمَــوتَ وَالْيَمَنِ كُلِّــهِ، وَكَانَتْ ثَمُودُ بِالْحَجَــرِ بَــيْنَ الْحِجَــازِ وَالشَّــامِ إِلَى وَادِي الْقُرَى وَمَا حَوْلَهُ، وَلَحِقَتْ جُدَيْسٌ بِطسمٍ، فَكَانُوا مَعَهُمْ بِالْيَمَامَةِ وَمَا حَوْلَهَا إِلَى الْبَحْرَيْنِ، وَاسْمُ الْيَمَامَةِ إِذْ ذَاكَ جَوٌّ، وَسَــكَنَتْ جَاسِــمٌ عُمَانَ فَكَانُوا بِهَا»[٣٨].

(٣٨) «تاريخ الطّبريّ»: ١/ ٢٠٤. ويختصر في نصّ لاحقٍ تاريخَ بلاد الشّام مقدّمًا خلاصةً سرديّةً يختمها بالرّؤية القدسيّة بصورتها القدريّة:«وَكَانَتِ الشَّامُ يُقَالُ لَهَا أَرْضُ بَنِي كَنْعَانَ، ثُمَّ جَاءَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَقَتَلُوهُمْ بِهَا، وَنَفَوْهُمْ عَنْهَا، فَكَانَتِ الشَّامُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ثُمَّ وَثَبَتِ الرُّومُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَتَلُوهُمْ، وَأَجْلَوْهُمْ إِلَى الْعِرَاقِ إِلا قَلِيلًا مِنْهُمْ، ثُمَّ جَاءَتِ الْعَرَبُ فَغَلَبُوا عَلَى الشَّامِ، وَكَانَ فَالِغُ- وَهُوَ فَالِغُ بْنُ عَابِرِ بْنِ أَرْفَخْشَدَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحٍ- هُوَ الذي قَسَّمَ الأَرْضَ بَيْنَ بَنِي نُوحٍ».«تاريخ الطّبريّ»: ١/ ٢٠٩. إذن كانت الأرض موزّعةً فما حصل يمثّل تكرارًا للخطيئة الأولى (الطّمَع). ويَذكر قبائل العرب في مكانٍ لاحق:«وقال عبد باجر- واسمه بهرا من العرب العاربة، وهم عشرة أحياء: عادٌ، وثمودُ، والعماليقُ، وطسمٌ، وجديسٌ، وأميمٌ، والمودُ، وجرهمٌ، ويقطنُ، والسّلفُ. قَالَ: والسّلف دخل في حِمْيَرَ».«تاريخ الطّبريّ»: ١/ ٦٢٦. ويقول في مكانٍ آخر:«قَالَ: وكان يقال لعادٍ إرمُ، فلمّا هلكت قيل لثمودَ إرمُ، ثمّ سُمُّوا الأرمانيّين، وهم بقايا إرمَ، وهم نبط السّواد، ويقال لدمشقَ: إرمُ. قَالَ: فارتفعوا عن سواد العراق وصاروا أشلاءً بعد في عرب الأنبار وعرب الحيرة، فهم أشلاء قُنُصَ بْنِ مَعَدٍّ، وإليهم يُنسب عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعةَ بن عمرو بن الحارث بن سعود بن مالك بن عمم بن نمارة بن لخم».«تاريخ الطّبريّ»: ١/ ٦١١.

ولإكمال الصّورة القدسيّة يضع لنا مشجّرًا نَسبيًا يؤكّـد مركزيّتنا ويعزّز المركزيّة اليهوديّة: «حدّثنا محمّد بن سـعد، قال: أخبرنا هشـام بـن محمّد، عـن أبيه: قال: الهند والسّـند بنو توقير بن يقطنَ بن عابر بن شـالخ بن أرفخشد بن سامٍ بن نوحٍ، ومكـران بن البند، وجرهمُ، اسـمه هذرم بن عابر بن سـبأ بن يقطنَ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سـام بن نوح. وحضرموتُ بن يقطنَ بن عابر بن شـالخ، ويقطنُ هو قحطانُ بن عابر بن شالخ بن أرفخشـد بن سـام بن نوح، في قول من نسَبه إلى غير إسـماعيلَ، والفرس بنـو فارس بن تيرش بن ناسـور بن نـوح، والنبط بنـو نبيط بن ماش بن إرم بن سـام بن نوح، وأهـل الجزيرة والعال من ولد ماش بن إرم بن سـام بن نوح، وعمليق- وهـو عريب- وطسـمُ وأميم بنو لوذ بن سـام بن نـوح. وعمليق هو أبـو العمالقة، ومنهـم البربر، وهـم بنو ثميلا بن مارب بن فـارانَ بن عمرو بن عمليق بن لوذ بن سـام بن نوح، ما خلا صنهاجةَ وكتامـةَ، فإنهما بنو فريقيش بن قيس بن صيفي بن سـبأ. ويقال: إن عمليق أوّل من تكلّم بالعربيّة حين ظعنوا مـن بابلَ، فكان يُقـال لهم ولجرهمَ: العرب العاربة، وثمـودُ وجديس ابنا عابر بن إرم بن سـام بن نوح، وعـاد وعبيل ابنا عوص بن إرمَ بن سـام بن نوح، والرّوم بنو لنطى بن يونانَ بن يافـثَ بن نـوح، ونمرودُ بن كوش بـن كنعانَ بن حـام بن نوح. وهـو صاحب بابـلَ، وهو صاحب إبراهيـمَ خليلِ الرّحمن (ﷺ)»[٣٩]. ففي مشـجّرة

(٣٩)«تاريخ الطّبريّ»: ١/ ٢٠٦- ٢٠٧. ورَد ذكر (عرب) لأوّل مرة سنة (٨٥٣ ق. م) عندما شارك الحاكم العربيّ جندب (جينديبو) في تحالف شاميّ ضمّ اليهود

النّسَب هذه نرى أنّ العرب العاربة متحدّرون من «قحطانَ[٤٠]- يقطنَ- بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح» لكنّ العرب المستعربة لم يكتفوا بِسامٍ، بل امتدّوا نحو إبراهيمَ (ع)؛ فهم ولد إسماعيلَ (ع)، ولغتهم تعود إلى (عمليق- عُريب) وعمليق أبو العمالقة وهو أبو البربر أيضًا. وإذا كان ما سبَق يضع العرب في قلب النّسب الإبراهيميّ، فإنّ الطّبريّ يأتي برواية يربط فيها بين خراب بيت المقدس وأرض العرب على يد بُخْتَنَصَّرَ، وبين اجتماع مَعَدٍّ بن عدنانَ بأنبياء بني إسرائيلَ، بوصفه أبًا للنّبي المنتظَر: «أنّ مَعَدَّ بن عدنانَ لمّا وُلد، ابتدأت بنو إسرائيلَ بأنبيائهم فقتلوهم... فبعث الله بُخْتَنَصَّرَ على بني إسرائيلَ، فلمّا فرغ من إخراب المسجد الأقصى... أُريَ فيما يرى النّائم... أن يدخل بلاد العرب فلا يستجبى فيها إنسيًّا ولا بهيمةً، وأن ينتسف ذلك نسفًا، حتّى لا يُبقي لهم أثرًا... وأنّ الله تعالى أوحى إلى إرميا وبرخيا أنّ الله قد أنذر قومكما، فلم ينتهوا، فعادوا بعد المُلك عبيدًا، وبعد نعيم العيش عالةً يسألون النّاس، وقد تقدّمت إلى أهل عربةَ بمثل ذلك فأبوا إلّا لحاجة، وقد سلّطتُ بُخْتَنَصَّرَ عليهم لأنتقم منهم، فعليكما بمَعَدٍّ بن عدنانَ، الذي من ولده محمّد الذي أُخرجه في آخر الزّمان، أختم به النّبوّة، وأرفع به من الضّعة. فخرجا تُطوى لهما الأرض حتّى سبقا بختنصرَ، فلقيا عدنانَ قد تلقّاهما، فطوياه إلى مَعَدٍّ، ولمَعَدٍّ يومئذٍ اثنتا عشرة سنة، فحمله برخيا على البُراق، وردف خلفه، فانتهيا إلى حرّانَ من ساعتهما، وطُويت الأرضُ لأرميا فأصبح بحرّانَ، فالتقى عدنانُ وبُخْتَنَصَّرُ بذات عِرق، فهَزم بُخْتَنَصَّرُ عدنانَ، وسار في بلاد العرب، حتّى قدم إلى حضور واتّبع عدنانَ، فانتهى بُخْتَنَصَّرُ إليها، وقد اجتمع أكثر العرب من أقطار من عربةَ إلى حضور، فخندق الفريقان، وضرب بُخْتَنَصَّرُ كمينًا- وذلك أوّل كمين كان فيما زعم- ثم نادى منادٍ من جوّ السّماء: يا لثارات الأنبياء! فأخذتهم السّيوف من خلفهم ومن بين أيديهم، فندموا على ذنوبهم، فنادوا بالويل،

والآراميّين والعرب ضدّ الملكِ شلمنصرَ الثّالثِ (٨٥٨ ق. م- ٨٢٣ ق. م) وقاد ألفًا من الفرسان الجمّالة في معركة قرقر. يُنظَر:«المُفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، جواد علي: ١/ ٥٩١. ويذكر في نصّ آخر تفصيلًا مختلفًا.

(٤٠) جاء في«التّوراة (سفر التّكوين)»: ٢٢:«بَنُو سَامٍ: عِيلاَمُ وَأَشُّورُ وَأَرْفَكْشَادُ وَلُودُ وَأَرَامُ.٢٣ وَبَنُو أَرَامَ: عُوصُ وَحُولُ وَجَاثَرُ وَمَاشُ.٢٤ وَأَرْفَكْشَادُ وَلَدَ شَالَحَ، وَشَالَحُ وَلَدَ عَابِرَ.٢٥ وَلِعَابِرَ وُلِدَ ابْنَانِ: اسْمُ الْوَاحِدِ فَالَجُ لأَنَّ فِي أَيَّامِهِ قُسِمَتِ الأَرْضُ. وَاسْمُ أَخِيهِ يَقْطَانُ.٢٦ وَيَقْطَانُ وَلَدَ: أَلْمُودَادَ وَشَالَفَ وَحَضَرْمَوْتَ وَيَارَحَ٢٧ وَهَدُورَامَ وَأُوزَالَ وَدِقْلَةَ٢٨ وَعُوبَالَ وَأَبِيمَايِلَ وَشَبَا٢٩ وَأُوفِيرَ وَحَوِيلَةَ وَيُوبَابَ. جَمِيعُ هؤُلاَءِ بَنُو يَقْطَانَ.٣٠ وَكَانَ مَسْكَنُهُمْ مِنْ مِيشَا حِينَمَا تَجِيءُ نَحْوَ سَفَارَ جَبَلِ الْمَشْرِقِ.٣١ هؤُلاَءِ بَنُو سَامٍ حَسَبَ قَبَائِلِهِمْ كَالسنَتِهِمْ بِأَرَاضِيهِمْ حَسَبَ أُمَمِهِمْ. ثم يذكره في سفر الأيام الأول: ١٩ وَلِعَابِرَ وُلِدَ ابْنَانِ اسْمُ الْوَاحِدِ فَالَجُ، لأَنَّ فِي أَيَّامِهِ قُسِمَتِ الأَرْضُ. وَاسْمُ أَخِيهِ يَقْطَانُ. ٢٠ وَيَقْطَانُ وَلَدَ: أَلْمُودَادَ وَشَالَفَ وَحَضَرْمَوْتَ وَيَارَحَ. ٢١ وَهَدُورَامَ وَأُوزَالَ وَدِقْلَةَ. ٢٢ وَعِيبَالَ وَأَبِيمَايِلَ وَشَبَا. ٢٣ وَأُوفِيرَ وَحَوِيلَةَ وَيُوبَابَ. كُلُّ هؤُلاَءِ بَنُو يَقْطَانَ».

(٤١)«تاريخ الطّبريّ»: ١/ ٥٦٠.

(٤٢) المصدر نفسه: ١/ ١٦٢.

(٤٣) المصدر نفسه: ١/ ٢٥٢- ٢٥٣.

ونُهـي عدنانُ عـن بُخْتَنَصَّرَ ونُهـي بُخْتَنَصَّرُ عن عدنانَ، وافترق من لم يشـهد حضور... فلمّا رجع بُخْتَنَصَّرُ مـات عدنانُ وبقيت بـلاد العرب خرابًا حياةَ بُخْتَنَـصَّرَ، فلمّا مات بُخْتَنَصَّرُ خرج مَعَدٌّ بن عدنـانَ معه الأنبياء، أنبياء بنـي إسرائيلَ صلوات اللـه عليهم، حتّـى أتى مكّةَ فأقـام أعلامَها، فحجّ وحجّ الأنبياءُ معـه»[٤١]، هذه الحكاية بعجائبيّتها (حضـور الـبُراق، وطـيّ الأرض...) الغايـة منها بيان أمرين أساسين: أوّلهما وحدة العرب واليهود نسـبًا، والأخرى مركزيّة الكعبة- ومن ثمّ مركزيّة الإسـلام- وهذا قد عُزّز بما رواه عـن بناء الكعبة لتكـون مركـزًا مكانيًّا، ثمّـة تكامل بـين التّاريخ (الأنساب) والجغرافية، فما يَرد من حوادث يجب أن نجد في الجغرافية مصداقها: «وقيل: إنّه لم يزل النّبيُّ شيثٌ مُقيمًا بمكّةَ يحجّ ويعتمر إلى أن مات، وإنّـه كان جمـع ما أَنـزل الله عزّ وجـلّ عليه من الصُّحف إلى صحف أبيه آدمَ (ع)، وعمل بما فيها، وإنّه بنَى الكعبة بالحجارة والطّين. وأمّا السّـلف من علمائنا فإنّهم قالـوا: لم تزل القبّة التي جعل اللـه لآدمَ في مكان البيت إلى أيّـام الطّوفان، وإنّما رفعها الله عزّ وجلّ حين أرسل الطّوفان. وقيل: إنّ شـيثًا لمّا مرض أوصى ابنه أنوشَ ومات، فدُفن مع أبويه في غـار أبي قبيس، وكان مولده لمضيّ مئتي سـنة وخمس وثلاثين سـنة، من عمـر آدمَ»[٤٢]، فـإذا كان هذا القول يوضّـح أنّ الكعبة بناها أبو البشر آدمُ (ع) فإنّها بقيت مسـتقرًّا للأنبياء حتّى الطّوفان؛ أي إنّ ولادة الجنس البشريّ وانتشـاره في الأرض انطلَـق من سرّتها (الكعبـة)، ولتكتمل الصّورة القُدسيّة للمكان، ومن ثمّ للجنس المحيط بـه كان يجـب الرّبط بين هـذا المـكان (الكعبة) بأبـي الأنبياء إبراهيـمَ (ع): «حَدَّثَنَا أَسْـبَاطٌ، عَنِ السُّـدِّيِّ، قَالَ: لَمَّا عهد الله إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ: (أنّ طهّـرا بيتي للطّائفـين)، انطلَق إبراهيمُ حتّى أتـى مكّةَ، فقام هو وإسـماعيلُ، وأخذا المعاول لا يدريان أين البيت، فبعث الله عزّ وجلّ ريحًا يقال لها ريـح الخجوج لها جناحـان ورأس في صورة حيّة، فكنسـت لهمـا ما حول الكعبة عن أسـاس البيـت الأوّل، واتّبعاهـا بالمعـاول يحفـران حتّى وضعا الأسـاس، فذلك حين يقول عزّ وجلّ: (وَإِذْ بَوَّأْنـا لِإِبْراهِيمَ مَـكانَ الْبَيْتِ)... عـن عليّ بن أبي طالِـب (ع) أَنَّهُ كَانَ يَقُـولُ: لَمَّا أَمَرَ اللَّـهُ إِبْرَاهِيمَ بِعِمَـارَةِ الْبَيْتِ وَالأَذَانِ بِالْحَـجِّ فِي النَّاسِ خَرَجَ مِنَ الشَّامِ وَمَعَهُ ابْنُهُ إِسْـمَاعِيلُ، وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ هاجرُ، وبعث الله معه السّكينة، وهي رِيحٌ لَهَا لِسَانٌ تَكَلَّمُ بِهِ، يَغْدُو مَعَهَا إِبْرَاهِيمُ إِذَا غَدَتْ، وَيَرُوحُ مَعَهَا إِذَا رَاحَتْ، حتّى انْتَهَتْ بِـهِ إِلَى مَكَّةَ، فَلَمَّا أَتَتْ مَوْضِعَ الْبَيْتِ اسْـتَدَارَتْ بِهِ، ثُمَّ قَالتّ لِإِبْرَاهِيـمَ: ابْنِ عَلَيَّ، ابْـنِ عَلَيَّ، ابْنِ عَلَيَّ، فَوَضَعَ إِبْرَاهِيمُ الأَسَـاسَ وَرَفَعَ الْبَيْـتَ هُوَ وَإِسْـمَاعِيلُ»[٤٣]. بالمقابـل نرى أنّه لم يأخذ بروايات ربطت بين آدمَ أو سـامٍ وبناء بيت المقدس، بل ذهب إلى الأخذ برواية مختلفة: «فرأى داوودُ الملائكة سالّين سيوفهم يغمدونها، يرتقون في سـلّم من ذهبٍ من الصّخرة إلى السّـماء، فقال داوودُ: هـذا مـكان ينبغـي أن يُبنى فيه مسـجد،

(٤٤) المصدر نفسه: ١/ ٤٨٥. ويُنظَر:«تاريخ بيت المقدس»، ابن الجوزيّ: ١. روى عن ابن عبّاس أنّ آدمَ أوّل

فأراد داوودُ أن يأخذ في بنائه، فأوحى الله إليه أنّ هذا بيت مقدّس، وإنّك قد صبغت يديك في الدّماء، فلستَ ببانيه، ولكنْ ابنٌ لك أُمِّلكه بعدك أسمّيه سليمانَ، أسلّمه من الدّماء. فلمّا ملَك سليمانُ بناه وشرّفه»[٤٤]. والأخذ بهذه الرّواية دون غيرها يؤكّد ما ذهبنا إليه.

يُعزّز ما ذهبنا إليه أنّ اللّغة العربيّة هي لغة الجنّة، ومن ثمّ فهي أفضل لغات المعمورة، ويوم الجمعة أصبح أقدس الأيّام: «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص): سَيِّدُ الأَيَّامِ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَلا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلّا يَوْمَ الْجُمَعَةِ»[٤٥] وصيغة التّحيّة: «فقال رسول الله (ص): قَدْ أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِتَحِيَّةٍ خَيْرٍ مِنْ تَحِيَّتِكَ يَا عُمَيْرُ، بِالسَّلَامِ تَحِيَّةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ»[٤٦].

والمُراد من كلّ ما سبَق ترسيخُ مركزيّة هذه الأمّة بجعلها صورةً عن أهل الجنّة.

وإذا كان ما سبَق يقف بنا عند حدود الجزيرة عالَم العرب، فأين نضع الإسلام ببُعده الأمميّ؟ هذا ما لا يغفل عنه الطّبريّ، إذ نجد أنّ المسلمين كَلِفوا بالتّاريخ لا بالجغرافية، وليس الفتوحات إلّا بابًا لهذا: «وَقَامَ عُمَرُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي النَّاسِ، فَقَالَ: إِنَّ الْحِجَازَ لَيْسَ لَكُمْ بِدَارٍ إِلّا عَلَى النُّجْعَةِ، وَلا يَقْوَى عَلَيْهِ أَهْلُهُ إِلّا بِذَلِكَ، أَيْنَ الطُّرَّاءُ الْمُهَاجِرُونَ عَنْ مَوْعُودِ اللَّهِ! سِيرُوا فِي الأَرْضِ التي وَعَدَكُمُ اللَّهَ فِي الْكِتَابِ أَنْ يُورِثَكُمُوهَا، فَإِنَّهُ قَالَ: (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)»[٤٧]. فليس الحديث السّابق إلّا مسعًى تسويغيًّا للفتوحات اللّاحقة، فالعرب ومَن جاورَهم أخوة تجمعهم جغرافية دينيّة متغيّرة بتغيّر علاقتهم مع الله، وليست المركزيّة العربيّة إلّا مهادا لمركزيّة إسلاميّة: «ثُمَّ قَالَ لَهُ رُسْتُمُ: تَكَلَّمْ أَمْ أَتَكَلَّمُ؟ فَقَالَ الْمُغِيرَةُ: أَنْتَ الذي بَعَثْتَ إِلَيْنَا، فَتَكَلَّمْ، فَأَقَامَ التّرْجُمَانُ بَيْنَهُمَا، وَتَكَلَّمَ رُسْتُمُ، فَحَمِدَ قَوْمَهُ، وَعَظَّمَ أَمْرَهُمْ وَطَوَّلَهُ، وَقَالَ: لَمْ نَزَلْ مُتَمَكِّنِينَ فِي الْبِلادِ، ظَاهِرِينَ عَلَى الأَعْدَاءِ، أَشْرَافًا فِي الأُمَمِ، فَلَيْسَ لأَحَدٍ مِنَ الْمُلُوكِ مِثْلُ عِزِّنَا وَشَرَفِنَا وَسُلْطَانِنَا، نُنْصَرُ عَلَى النَّاسِ وَلا يُنْصَرُونَ عَلَيْنَا إِلا الْيَوْمَ وَالْيَوْمَيْنِ، أَوِ الشَّهْرَ وَالشَّهْرَيْنِ، لِلذُّنُوبِ، فَإِذَا انْتَقَمَ اللَّهُ فَرَضِيَ رَدَّ إِلَيْنَا عِزَّنَا، وَجَمَعَنَا لِعَدُوِّنَا شَرَّ يَوْمٍ هُوَ آتٍ عَلَيْهِم، ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي النَّاسِ أُمَّةٌ أَصْغَرُ عِنْدَنَا أَمْرًا مِنْكُمْ، كُنْتُمْ أَهْلَ قَشَفٍ وَمَعِيشَةٍ سَيِّئَةٍ، لا نَرَاكُمْ شَيْئًا وَلا نَعُدُّكُمْ، وَكُنْتُمْ إِذَا قَحِطَتْ أَرْضُكُمْ، وَأَصَابَتْكُمُ السَّنَةُ اسْتَغَثْتُمْ بِنَاحِيَةِ أَرْضِنَا فَنأمُرُ لكُم بِالشَّيءِ مِنَ التّمْرِ وَالشَّعِيرِ ثُمَّ نَرُدُّكُمْ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَمْ يَحْمِلْكُمْ عَلَى مَا صَنَعْتُمْ إِلّا مَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْجَهْدِ فِي بِلادِكُمْ، فَأَنَا آمِرٌ لأَمِيرِكُمْ بِكِسْوَةٍ وَبَغْلٍ وَأَلْفِ دِرْهَمٍ، وَآمِرٌ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِوِقْرِ تَمْرٍ وَبِثَوْبَيْنِ، وَتَنْصَرِفُونَ عَنَّا، فَإِنِّي لَسْتُ أَشْتَهِي أَنْ أَقْتُلَكُمْ وَلا آسِرَكُمْ. فَتَكَلَّمَ الْمُغِيرَةُ

مَن أسّسه وطاف به، ثمّ درس من الطّوفان حتّى بعث الله إبراهيمَ وإسماعيلَ فرفعا قواعده. وروايات أُخَرُ.

(٤٥)«تاريخ الطّبريّ»: ١/ ١١٤.

(٤٦) المصدر نفسه: ٢/ ٤٧٣.

(٤٧) المصدر نفسه: ٣/ ٤٤٥.

(٤٨) المصدر نفسه: ٣/ ٥٢٢- ٥٢٣.

(٤٩)«تاريخ الطّبريّ»: ١١/ ٦٣١. وذكَر قبلها أنّ تُبّع سار«حتّى دخل الصّين، فقتل مقاتلها، واكتسح ما وجد

بْنُ شُـعْبَةَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْـهِ، وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَازِقُهُ، فَمَنْ صَنَعَ شَـيْئًا فَإِنَّمَا هُوَ الـذّى يصنعه هو لَـهُ وَأَمَّا الذي ذَكَرْتَ بِهِ نَفْسَـكَ وَأَهْـلَ بِلادِكَ، مِنَ الظُّهُورِ عَـلَى الأَعْدَاءِ وَالتَّمَكُّنِ فِي الْبِـلادِ وَعِظَمِ السُّـلْطَانِ فِي الدُّنْيَا، فَنَحْـنُ نَعْرِفُهُ، وَلَسْـنَا نُنْكِرهُ، فَاللَّهُ صَنَعَهُ بِكُـمْ، وَوَضَعَهُ فِيكُمْ، وَهُـوَ لَهُ دُونَكُـمْ، وَأَمَّا الذي ذَكَرْتَ فِينَا مِنْ سُـوءِ الْحَالِ، وَضِيقِ الْمَعِيشَـةِ وَاخْتِلافِ الْقُلُوبِ، فَنَحْنُ نَعْرِفُهُ، وَلَسْـنَا نُنْكِرهُ، وَاللَّهُ ابْتَلانَا بِذَلِكَ، وَصَيَّرَنَا إِلَيْـهِ، وَالدُّنْيَـا دُوَلٌ»[٤٨]، في هذه المواجهة الكلاميّة يتجلّى صراع الهويّات بأشده بين أمّة آفِلة وأخرى صاعدة. والطّرفان يضعان تقدير الأمور بيد الله. وكأنّ ثمّـة مشـتركًا إيمانيًّا موحّـدًا ينطلقان منه عـلى عكس ما هو معروف. إنّها صورة العرب عن ذاتهـم لا حقيقة ما جـرى. وربّما قول الإمام زين العابديـن عليّ بن الحسـين (ت ٩٤هـ) يضعنا في قلب الصّورة التي رسمها العرب عن أنفسهم بعد تشـكّل الأمّة: «أصبحت قريشٌ تعدّ أنّ لها الفضل عـلى العرب، لأنّ محمّدًا منهـا لا تعدّ لها فضلًا إلّا بـه، وأصبحت العرب مُقرّة لهـم بذلك، وأصبحت العـرب تعدّ أنّ لها فضلًا على العجـم، لأنّ محمّدًا منهـا، لا تعدّ لهـا فضلًا إلّا بـه، وأصبحت العجم مُقـرّةً لهم بذلك، فلئن كانت العرب صدقَت أنّ لها فضـلًا على العجم، وصدقت قريشٌ أنّ لها الفضل على العـرب، لأنّ محمّـدًا منها، إنّ لنـا أهلَ البيت الفضـل على قريشٍ، لأنّ محمّدًا منّا»[٤٩]. لكنّ هذه النّظرة التـي تربط الفضل بالنّبـيّ العربيّ، نجد نصوصًـا تعارضُها لكونها تجعل الفضل سـابقًا تاريخيًّـا للحظة النّبـوّة العربيّة من جهة، ويمكن عـدّ هذه النّصـوص نصوصًا اسـتشرافيّةً: «فَوَلَدُ سَـامَ الْعَرَبُ وَفَارِسُ وَالـرُّومُ، وَفِي كُلِّ هَؤُلاءِ خَيْرٌ، وَوَلَـدُ يَافِثَ التّرْكُ وَالصَّقَالِبَـةُ وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَلَيْـسَ فِي وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلاءِ خَيْرٌ، وَوَلَـدُ حَامَ الْقِبْطُ وَالسُّـودَانُ وَالْبَرْبَرُ. ورُوِيَ عـن ضمرةَ بن ربيعةَ، عـن ابن عطاء، عن أبيه، قالَ: ولدُ حامَ كلُّ أسـود جعد الشّـعر، وولدُ يافـثَ كلُّ عظيم الوجه صغير العينين، وولدُ سامَ كلُّ حسن الوجه حسن الشّعر، قال: ودعا نوح على حام ألّا يعدو شعر ولده آذانهم، وحيثما لقي ولده ولد سام استعبدوهم»[٥٠]. فهنا نحـن أمام ثـلاث طبقـات للبشر: طبقـة الخيرة، وطبقة لا خير فيها، وطبقة العبيد. والعرب واليهود والفـرس حُصِر الخير فيهم. وإذا كان العدنانيّون (الإسـماعيليّون- الهاجريّون) تقدّسوا بانتسابهم وانبثـاق النّبوّة في أصلابهم، فـإنّ القحطانيّين[٥١] وصلـوا بـ(فتوحاتهم) إلى الصّـين، وهم مَن بَنى سـمرقندَ وحيّر الحيرة، أي أنّ القحطانيّين جعلوا

فيها، قَالَ: ويزعمون أنّ مسيره كان إليها ومقامه بها ورجعته منها في سبع سنين، وأنّه خلّف بالتّبت اثني عشر ألف فارس من حِميَر، فهم أهل التّبت، وهم اليوم يزعمون أنّهم عرب، وخلْقهم وألوانهم خلْق العرب وألوانها».«تاريخ الطّبريّ»: ١/ ٥٦٧.

(٥٠) المصدر نفسه: ١/ ٢١٠.

(٥١) وقحطـانُ هو (يقطانُ) الذي يرد اسمه في سفر التّكوين، بحسب قـول جـواد عـلي، وأمّا بالنّـسبة إلى (عـدنان)، فـإنّ مـن العـسير علينا أن نتحدّث عن المنبع

مـن العرب أمّة لها شـأنها الذي ضيّعته سـنوات الاحتـلال الفـارسيّ والرّومـيّ والحبـشيّ، فـكان

الذي أمدّ أهل الأخبار باسْمه، فليس في التّوراة اسمٌ بين أسماء أبناء إسماعيلَ، أو غير أبناء إسـماعيلَ، ولـيس فيها اسمُ مَلك عربيّ أو سيّد أو قبيلة عربيّة اسمه يشابه اسم عدنان. يُنظَر:«المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام»: ١/ ٣٥٤ و٣٨٠. لكن ما شاع عند النّسّابة العرب أنّهم رأس العرب؛ من الأوّل ولد ربيعةَ ومضر، ومن الآخر كهلانَ وحِميَرَ، وليس بين العرب مَن ينتسب لغيرهم إلّا مَن نُسب إلى القبائل البائدة. ولنا في قصيدة الأفوه الأوديّ (ت نحو ٥٥٥م) التي نهى الرّسول عن إنشادها خيرُ دليل على عمق الانقسام العربيّ، إذ يقول فيها:

يا بني هاجرَ ساءت خطّةٌ ...

أن تَرَوموا النَّصف منّا ومَحارُ

ويعود جذر الصّراع عند بعض المؤرّخين والنّسّابة إلى استيلاء قريش على الكعبة من خزاعةَ القحطانيّة. وهذا يُعيدنا إلى ما قلناه حول مركزيّة الكعبة. ويَذكر الطّبريّ أنّه:«في هذه السّنة، هاجت العصبيّة بالشّام بين النّزاريّة واليمانيّة، ورأس النّزاريّة يومئذٍ أبو الهيذام. ذِكر الخبر عن هذه الفتنة: ذُكر أنّ هذه الفتنة هاجت بالشّام وعامل السّلطان بها موسى بْن عيسى، فقُتل بين النّزاريّة واليمانيّة على العصبيّة من بعضهم لبعض بشَر كثير، فولّى الرّشيد موسى بْن يحيى بْن خالد الشّام، وضمّ إليه من القُوّاد والأجناد ومشايخ الكتّاب جماعة، فلمّا ورد الشّام، أحلّت لدخوله إلى صالح بْن عليّ الهاشميّ، فأقام موسى بها حتّى أصلح بين أهلها، وسكنت الفتنة، واستقام أمرها».«تاريخ الطّبريّ»: ٨/ ٢٥١. ويُنظَر: ٥/ ٥٢٧، ٧/ ٣٠، ١٠٨، ٢٥٨، ٢٧١، ٣٢١، ٤٥٣، ٤٥٤ و٨/ ٣٠١...

(٥٢)«تاريخ الطّبريّ»: ٢/ ١١١.

(٥٣) المصدر نفسه: ١/ ٦٠٩.

(٥٤) المصدر نفسه: ٢/ ٤٣.

أن جاءت رسـالة النّبـيّ (ﷺ) لتسـتعيد ماضيًا حضاريًّا. إنّه التّناوب بين القحطانيّين والعدنانيّين، الذي يسـتبطن محاولة درئ فتنة، وهذا يتعارض مع النّظرة السّائدة عند جميع المؤرّخين بمن فيهم الطّبريّ، ولا تفسـير لهذه الازدواجيّة إلّا بتمييزهم بين العرب القحطانيّين ونظرائهم العدنانيّين. بين تحـضّرٍ وبداوة: «ثُـمَّ كَانَ بَعْدَ تُبَّـعٍ الأَوَّلِ زَيْدُ بْنُ عَمرو، وَشِـمْر يَرْعِشُ بْنُ يَاسِرٍ يَنْعُمَ بْنِ عَمْرٍو ذِي الأَذْعَارِ، ابْنِ عَمِّهِ. وَشِـمْرُ يَرْعِشُ الذي غَزَا الصِّينَ وَبَنَى سَمَرْقَنْدَ وَحَيَّرَ الْحِيرَةَ»(٥٢).

أمّـا عن الفضاء العربيّ، فهو فضاء انبثق من مكّةَ ثم بدأ بالاتّسـاع، وهذا الفضاء رُسم بقدسيّة أيضًـا، فالعرب اليمنيّون أصلٌ لا الحجازيّون: «لمّا مـات بُخْتَنَصَّرُ انضمّ الذين كان أسـكنهم الحيرة مـن العرب حين أمر بقتالهم إلى أهل الأنبار وبقي الحـير خرابًا، فغبروا بذلـك زمانًا طويلًا، لا تطّلع عليهـم طالعة من بـلاد العرب، ولا يقـدم عليهم قـادم، وبالأنبار أهلها ومَن انضـم إليهم من أهل الحيرة من قبائل العرب من بني إسـماعيلَ وبني مَعَدٍّ بن عدنانَ، فلمّا كثُر أولاد مَعَدٍّ بن عدنانَ ومَن كان معهـم من قبائل العـرب، وملؤوا بلادهم من تهامة ومـا يليهم، فرّقتهم حـروب وقعت بينهم، وأحـداث حدثـت فيهم، فخرجوا يطلبون المتّسـع والرّيف فيما يليهم من بلاد اليمن ومشارف الشّام، وأقبلـت منهـم قبائل حتّـى نزلوا البحريـن»(٥٣)، وعندما يتحـوّل نحو عرب العراق، والشّـام فإنّه يوزّعهم كالآتي:

(٥٥) المصدر نفسه: ١/ ٦١٠.

«ولّما استولى أردشـيرُ على المُلك بالعراق كره كثير من تنـوخ أن يقيمـوا في مملكتـه، وأن يدينوا له، فخرج مَـن كان منهم مـن قبائل قضاعـةَ الذين كانـوا أقبلوا مع مالك وعَمرو ابنَي فهْم، ومالك بن زهـير وغيرهم، فلحقوا بالشّـام إلى مَن هنالك من قضاعةَ. وكان ناس من العرب يُحدِثون في قومهم الأحـداث، أو تضيق بهم المعيشـة، فيخرجون إلى ريف العراق وينزلون الحيرة على ثلاثة أثلاث: ثلث تنوخ، وهو مَن كان يسـكن المظالّ وبيوت الشّعر والوبر في غربي الفـرات، فيما بين الحيرة والأنبار وما فوقها. والثّلث الثّاني العبّاد، وهم الذين كانوا سكنوا الحيرة وابتنوا بها. والثّلث الثّالثّ الأحلاف، وهم الذين لحقوا بأهل الحيرة، ونزلوا فيهم، ممن لم يكن من تنوخ الوبر، ولا من العبّاد الذين دانوا لأردشـيرَ. وكانت الحيرة والأنبـار بُنيَتا جميعًا في زمـن بُخْتَنَصَّرَ، فخربت الحيرةُ لتحوُّل أهلها عنها عند هـلاك بُخْتَنَـصَّرَ إلى الأنبار، وعُمّـرت الأنبار خمسمئة سنة وخمسين سنة، إلى أن عُمّرت الحيرة في زمـن عمرو بن عـديّ، باتّخـاذه إيّاهـا منزلًا، فعُمّرت الحيرة خمسـمئة سـنة وبضعًـا وثلاثين سـنة إلى أن وُضعت الكوفة، ونزلَها الإسـلام»[٥٤]. وكان سـبقه بوصف تكّون الغساسنة: «فاجتمع بالبحريـن جماعـة من قبائـل العـرب، فتحالفوا على التّنوخ- وهـو المقام- وتعاقـدوا على التّوازر والتّناصر، فصاروا يدًا على النّاس، وضمّهم اسـم تنـوخ، فكانـوا بذلـك الاسـم، كأنّهم عمـارة من العمائر. قـال: وتنخ عليهم بطون مـن نمارةَ بن لخـم، قَالَ: ودعا مالك بن زهير جذيمةَ الأبرش بن مالك بن فهم بن غانم بن دوس الأزديّ إلى التّنوخ معه، وزوّجه أختـه لميسَ ابنة زهير، فتنخ جذيمةُ بـن مالك وجماعـة ممّن كان بها مـن قومهم من الأزد، فصـار مالك وعمرو ابنـا فهم والأزد حلفاء دون سائر تنوخ، وكلمة تنوخ كلّها واحدة»[٥٥].

ويذكـر عـرب تدمُرَ بالقول: «قَالَ ابن الكلبيّ: ويقـال إنّ جذيمةَ الأبرش مـن العاربة الأولى، من بنـي وبار بن أميمَ بن لوذَ بن سـامَ بن نوحٍ قَالَ: وكان جذيمـةُ مـن أفضـلِ ملـوك العـرب رأيًا... وكانـت منازلـه فيما بين الحـيرة والأنبـار وبقة وهيـت وناحيتها، وعـين التّمر، وأطـراف البرّ إلى الغويـر والقطقطانةَ وخفيةَ ومـا والاها، وتُجبى إليه الأمـوال، وتَفِد إليه الوفود، وكان غزا طسـمًا وجديسًـا في منازلهم من جّـو وما حولهم، وكانت طسم وجديس يتكلّمون بالعربيّة»[٥٦].

أمّا عن علاقتهم بالدّولة الفارسيّة فإنّها قائمة عـلى الاحتراب: «وكانت بلاد العرب أدنى البلاد إلى فـارس، وكانوا من أحوج الأمم إلى تناول شيء من معايشهم وبلادهم، لسوء حالهم وشظف عيشهم، فسـار جمعٌ عظيم منهـم في البحر من ناحية بلاد عبد القيس والبحرين وكاظمـةَ، حتّى أناخوا على أبرشـهر وسواحل أردشـيرَ خرة وأسياف فارس، وغلبوا أهلها على مواشيهم وحروثهم ومعايشهم، وأكثروا الفساد في تلك البلاد، فمكثوا على ذلك من أمرهـم حينًـا، لا يغزوهم أحد مـن الفُرس... [إلى

(٥٦) المصدر نفسه: ١/ ٦١٣.

(٥٧) المصدر نفسه: ٢/ ٥٥- ٥٨. ويروي الطّبريُّ:«روى هشام وغيره أنّ أوّل مَن كتَب من العرَب حربُ بن أميّةَ بن عبد شمس بالعربيّة، وأنّ أوّل مَن كتَب بالفارسيّة

أن] انتَخب سابورُ ألفَ فارسٍ من صناديد جنده وأبطالهم، وتقدّم إليهم في المُضيّ لأمره، ونهاهم عن الإبقاء على مَن لقوا من العرب، والعرجة على إصابةِ مالٍ، ثمّ سار بهم فأوقع بمَن انتجع بلادَ فارسَ من العرب وهم غارون، وقتلَ منهم أبرحَ القتْلِ، وأسرَ أعنفَ الأسْرِ، وهرب بقيّتُهم، ثمّ قطع البحر في أصحابه، فورد الخطّ، واستقرى بلادَ البحرين، يقتل أهلها ولا يقبل فداءً، ولا يعرج على غنيمة ثمّ مضى على وجهه، فورد هجرَ، وبها ناس من أعراب تميم وبكر بن وائل وعبد القيس، فأفشى فيهم القتل، وسفك فيهم من الدّماء سفكًا سالت كسيل المطر، حتّى كان الهارب منهم يرى أنّه لن ينجيه منه غارٌ في جبل، ولا جزيرةٌ في بحر، ثمّ عطف إلى بلاد عبد القيس، فأباد أهلَها إلّا مَن هرب منهم، فلحق بالرّمال، ثمّ أتى اليمامةَ، فقتل بها مثل تلك المقتلة، ولم يمرّ بماء من مياه العرب إلّا عوّره، ولا جُبٍّ من جبابهم إلّا طمّه، ثمّ أتى قرب المدينة، فقتل مَن وجد هنالك من العرب وأسَر، ثمّ عطف نحو بلاد بكرٍ وتغلبَ فيما بين مملكةِ فارسَ ومناظرِ الرّوم بأرض الشّام، فقتل مَن وجد بها من العرب، وسبى وطمّ مياههم»[٥٧]، هذه المسيرة وغزو الأرض التي تُعدّ جزءًا من مملكة فارسَ هو ذاته سنراه مع دخول جند المسلمين، فخالد بن الوليد في خطبةٍ له يُغري جنوده بما سيتحصّلون عليه من إبدالٍ لشظف العيش في جزيرتهم بالعيش الرّغيد في أرض العراق، كأنّه استعادة لحروب على الكلأ ومنابع الماء: «وَقَامَ خَالِدٌ فِي النَّاسِ خَطِيبًا يُرَغِّبُهُمْ فِي بِلادِ الْعَجَمِ، وَيُزَهِّدُهُمْ فِي بِلادِ الْعَرَبِ، وَقَالَ: أَلا تَرَوْنَ إِلَى الطَّعَامِ كَرَفْغِ التُّرَابِ، وَبِاللَّهِ لَوْ لَمْ يُلْزِمْنَا الْجِهَادُ فِي اللَّهِ وَالدُّعَاءُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَمْ يَكُنْ إِلّا الْمَعَاشُ لَكَانَ الرَّأْيُ أَنْ نُقَارِعَ عَلَى هَذَا الرِّيفِ حتّى نَكُونَ أَوْلَى بِهِ، وَنُوَلِّيَ الْجُوعَ وَالإِقْلالِ مَنْ تَوَلّاهُ مِمَّنِ اثَّاقَلَ عَمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ. وَسَارَ خَالِدٌ فِي الْفَلّاحِينَ بِسِيرَتِهِ فَلَمْ يَقْتُلْهُمْ، وَسَبَى ذَرَارِيَ الْمُقَاتِلَةِ وَمَنْ أَعَانَهُمْ، وَدَعَا أَهْلَ الأَرْضِ إِلَى الْجَزَاءِ وَالذِّمَّةِ، فَتَرَاجَعُوا»[٥٨].

وربّما هذا ما نلمسه حين نقرأ مواقف القبائل العربيّة المستوطنة للعراق والمستظلّة بظلّ الحكم الفارسيّ: «فَخَلا خَالِدٌ بِأَهْلِ كُلِّ قَصْرٍ مِنْهُمْ دُونَ الآخَرِينَ، وَبَدَأَ بِأَصْحَابِ عَدِيٍّ، وَقَالَ: وَيْحَكُمْ! مَا أَنْتُم؟! أَعَرَبٌ؟ فَمَا تَنْقِمُونَ مِنَ الْعَرَبِ! أَوْ عَجَمٌ؟ فَمَا تَنْقِمُونَ مِنَ الإِنْصَافِ وَالْعَدْلِ! فَقَالَ لَهُ عَدِيٌّ: بَلْ عَرَبٌ عَارِبَةٌ وَأُخْرَى مُتَعَرِّبَةٌ، فَقَالَ: لَوْ كُنْتُمْ كَمَا تَقُولُونَ لَمْ تُحَادُّونَا وَتَكْرَهُوا أَمْرَنَا، فَقَالَ لَهُ عَدِيٌّ: لِيَدُلُّكَ عَلَى مَا نَقُولُ أَنَّهُ لَيْسَ لَنَا لِسَانٌ إِلّا بِالْعَرَبِيَّةِ، فَقَالَ: صَدَقْتَ، وَقَالَ: اخْتَارُوا وَاحِدَةً مِنْ ثَلاثٍ: أَنْ تَدْخُلُوا فِي دِينِنَا فَلَكُمْ مَا لَنَا وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَيْنَا إِنْ نَهَضْتُمْ وَهَاجَرْتُمْ، وَإِنْ أَقَمْتُمْ فِي دِيَارِكُمْ، أَوِ الْجِزْيَةَ، أَوِ الْمُنَابَذَةَ وَالْمُنَاجَزَةَ، فَقَدْ وَاللَّهِ أَتَيْتُكُمْ بِقَوْمٍ هُمْ عَلَى الْمَوْتِ أَحْرَصُ مِنْكُمْ عَلَى الْحَيَاةِ فَقَالَ: بَلْ نُعْطِيكَ الْجِزْيَةَ، فَقَالَ خَالِدٌ: تَبًّا لَكُمْ، وَيْحَكُمْ! إِنَّ الْكُفْرَ فَلاةٌ مُضِلَّةٌ، فَأَحْمَقُ الْعَرَبِ مَنْ سَلَكَهَا»[٥٩]، فخالد هنا عاملَهم معاملته

بيوراسب، وكان في زمان إدريسَ، وكان أوّل مَن صنّف طبقات الكُتّاب وبيّن منازلهم لهراسب ابن كاوغان بن كيموس».«تاريخ الطّبريّ»: ٦/ ١٧٨. وذِكر حربٍ هنا يمكن عده سياسيًّا لا توثيقيًّا أو ثقافيًّا.

(٥٨)«تاريخ الطّبريّ»: ٣/ ٣٥٤.

(٥٩) المصدر نفسه: ٣/ ٣٦١- ٣٦٢.«وَلَمَّا اطْمَأَنَّ خَالِدٌ بِالأَنْبَارِ وَالْمُسْلِمُونَ، وَأَمِنَ أَهْلَ الأَنْبَارِ وَظَهَرُوا، رَآهُمْ

للفرس أنفسهم، ولم يفرّق برغم أنّه كان مستنكرًا لموقفهم، في حين أنّهم كانوا مَن استنكر دخول المسلمين أرضهم وسيطرتهم عليها.

٥ـ خاتمة

لا تتشكّل هويّة الأمّة إلّا بخَلق أساطيرَ تعزّز الرّوح القوميّة، وتخْلق نَسبًا مشتركًا يجمع الفُرقاء تحته، وبمرور الزّمن تصبح هذه الأساطير حقائقَ يجب الدّفاع عنها، وكان العامل الدّينيّ أساسًا في عمليّة الدّفاع تلك، فما وُلِّد من أساطيرَ ورموزٍ، مع تبنّي الإسلام ديانةً من قِبَل القبائل العربيّة، أصبحت نصوصًا شارحةً للمتن المقدّس (القرآن) وبأسانيدَ (قُدّس أصحابُها) لسابقتهم في الإسلام، ومن ثمّ تقدّس النّصّ الشّارح نفسه، وأصبحنا نسمع الشّيوخ والوُعّاظ، بل المؤرّخون أجمعهم، وليس الأخباريّون فحسب، يردّدونه ويَسعون لتوظيف مجمل المعارف التّاريخيّة لبيان صحّته، فكان أن تحوّل النّصّ الشّارحُ إلى متنٍ مشروحٍ.

فضلًا عن خلق أساطيرِ الولادة، نحن بحاجة إلى تعظيم الصّراع مع آخرَ يبَلور الهُويّة ببُعدها الآنيّ. فكان أن أصبحت اللّغة مفتاحًا في هذا، ووُزّع البشر بين (عربيّ/ أعجميّ) ونحن ندرك أنّ العُجمة صفةٌ للحيوان، وهذه مركزة للذّات أخرى، يروي لنا الطّبريّ في وقائع المختار الثّقفيّ مع جيش مروانَ بن الحكَم قوله: «قال أبو مخنف: وحدّثني عمرو بن مالك أبو كبشةَ القينيّ، قال: كنت غلامًا حين راهقتُ مع أحد عمومتي في ذلك العسكر، فلمّا نزلنا بعسكر الكوفيّين عبّأنا ربيعةُ بن المخارق فأحسن التّعبئة، وجعل على ميمنته ابن أخيه، وعلى ميسرته عبد ربه السُّلميّ، وخرج هو في الخيل والرّجال، وقال: يا أهل الشّام، إنّكم إنّما تقاتلون العبيد الإباق، وقومًا قد تركوا الإسلام وخرجوا منه، ليست لهم تقيّة، ولا ينطقون بالعربيّة، قال: فوَ الله إن كنتُ لأحسبُ أنّ ذلك كذلك حتّى قاتلناهم، قال: فوَ الله ما هو إلّا أن اقتتل النّاس إذا رجلٌ من أهل العراق يعترض النّاس بسيفه وهو يقول:

برئت من دين المحكّمينا ... وذاك فينا شرّ دين دينا»

من هذا القول نرى أنّهم ربطوا بين اللّغة والدّين، فأهل العراق لا يتكلّمون العربيّةَ كما زعم ربيعةُ بن المخارق في خطبته، وهذا دليل على عدم إسلامهم!

لكن ما لا خلاف عليه أنّ الصّراع مع الأمم المجاورة (الفرس والرّوم خاصّة) لغةً ودينًا، فضلًا عن الصّراع السّياسيّ بأبعاده المعروفة، كان دافعًا للتّمسّك بأساطيرِ الولادة وتعزيز وجودها في عقل كلّ عربيّ، فضلًا عن كونه، إلى جانب الحاجة الدّينيّة، كان دافعًا أساسًا في العناية بالعلوم العربيّة، وفي ظلّ هذا الصّراع نشأت علومُ اللّغة والنّحو والمغازي والسِّيَر والحديث والفقه وعلوم

يَكْتُبُونَ بِالْعَرَبِيَّةِ وَيَتَعَلَّمُونَهَا، فَسَأَلَهُمْ: مَا أَنْتُمْ؟ فَقَالُوا: قَوْمٌ مِنَ الْعَرَبِ، نَزَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مِنَ الْعَرَبِ قَبْلَنَا- فَكَانَتْ أَوَائِلَهُمْ نَزَلُوهَا أَيَّامَ بُخْتَنَصَّرَ حِينَ أَبَاحَ الْعَرَب، ثُمَّ لَمْ تَزَلْ عَنْهَا- فَقَالَ: مِمَّنْ تَعَلَّمْتُمُ الْكِتَابَ؟ فَقَالُوا: تَعَلَّمْنَا الْخَطَّ مِنْ إِيَادٍ، وَأَنْشَدُوهُ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

قَوْمِي إِيَادٌ لَوْ أَنَّهُمْ أَمَمُ ... أَوْ لَوْ أَقَامُوا فَتُهْزَلُ النَّعَمُ

قَوْمٌ لَهُمْ بَاحَةُ الْعِرَاقِ إِذَا ... سَارُوا جَمِيعًا وَالْخَطُّ وَالْقَلَمُ».

«تاريخ الطّبريّ»: ٣/ ٣٧٤.

(٦٠) يُنظَر:«التّكوين التّاريخيّ للأمّة العربيّة»: ٩٠- ٩١.

القرآن والتّرجمة[٦٠]... إلخ. هكذا أصبحنا بفضل ما سبق أمامَ أمّة بهويّة مكتملة الأركان (النّسَب، اللّغة، الدّين) في ضوء هذا يُفهم تاريخ الطّبريّ الذي يُعدُّ امتدادًا لتفسيره، ومن ثمّ يمكن القول بأنّه مرآة للقرن الثّالثّ للهجرة، قرن التّشكّل الهوويّ وبروز الأمّة... وقد كان جهدنا فيما بحثناه مُنصبًّا على قراءة المتن التّاريخيّ لمرحلةِ ما قبل الإسلام، بوصفه مقدّمًا على أنّه صورة لهويّة تشكّلت بعد تشكّل الهويّة نفسها. أي أنّ الماضي شكّلَه الحاضرُ لا العكس.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

- الكتاب المقدّس.

-«الأسس الثّقافيّة للأمم (الهرميّة والعهد والجمهوريّة)»، أنتوني دي سميث، ترجمة: صفيّة مختار، مؤسّسة هنداوي، لندن، ٢٠١٨م.

-«الإمام الطّبريّ»، محمّد الزّحيلي، سلسلة أعلام الإسلام (٣٣)، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٩٩م.

-«بناء الحكاية التّاريخيّة عند الطّبريّ (قراءة سيميائيّة)»، سعيد عبد الهادي المرهج، دار دجلة الأكاديميّة، بغداد-بيروت، ط٢، ٢٠١٩م.

-«تاريخ التّراث العربيّ»، فؤاد سزكين، ترجمة: الدّكتور محمود فهمي حجازي، جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، الرّياض، ١٩٩١م.

-«تاريخ الطّبريّ (تاريخ الرّسل والملوك)»، محمّد بن جرير بن يزيدَ الطّبريّ (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، سلسلة ذخائر العرب (٣٠)، القاهرة، ط٢، ١٩٦٧م.

-«التّاريخ العربيّ والمؤرّخون (دراسة في تطوّر علم التّاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام)»، شاكر مصطفى، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.

-«تاريخ بغداد»، الخطيب البغداديّ، أبو بكر أحمد بن عليّ بن ثابت (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط٢، ٢٠٠٤م.

-«تاريخ بيت المَقدس»، ابن الجوزيّ، جمال الدّين أبو الفرج عبد الرّحمن بن عليّ بن محمّد (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق: محمّد زينهم عزب، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، القاهرة، ١٩٩٨م.

-«التّكوين التّاريخيّ للأمّة العربيّة (دراسة في الهويّة والوعي)»، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط٦، ٢٠١٩.

-«الزّمان والسّرد»، بول ريكور، ترجمة: سعيد الغانمي وفلاح رحيم، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.

-«سياسيّات الإسلام المعاصر (مراجعات ومتابعات)»، رضوان السيّد، دار جداول، بيروت، ط١، ٢٠١٥م.

-«شعريّة التّاريخ الإسلاميّ (تفكيك تاريخ الطّبريّ)»، بوز شوشان، ترجمة: حيدر الكعبي، دار الجمل، بغداد، ط١، ٢٠١٦م.

-«شعرية التّاريخ»، هايدن وايت، ترجمة: ثائر ديب، «مجلّة أسطور»، العدد ٤، تموز ٢٠١٦: ١٣٢.

-«صحيح وضعيف تاريخ الطّبريّ»، محمّد بن طاهر البرزنجي ومحمّد صبحي حسن حلّاق، دار ابن كثير، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.

-«صورة الآخر (العربيّ ناظرًا ومنظورًا إليه)»، تحرير: الطّاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

-«ضحى الإسلام»، أحمد أمين، مؤسّسة هنداوي، لندن،

ط١، ٢٠١٢.

-«الطّبريّ»، أحمد محمّد الحوفي، سلسلة أعلام العرب (١٣)، المؤسّسة المصريّة العامّة للتّأليف والتّرجمة، القاهرة، (د. ت).

-«علم التّاريخ عند المسلمين»، فرانز روزنثال، ترجمة: الدّكتور صالح أحمد العلي، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.

-«عليٌّ ومعاوية في الرّواية الإسلاميّة المبكّرة»، إيلرلنغ ليدوغ بيترسن، ترجمة: عبد الجبّار ناجي، قُمّ، ٢٠٠٨م.

-«فكرة التّاريخ»، ر.ج. كولنجوود، ترجمة: محمّد بكير خليل، لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، ط١، ١٩٦١م.

-«القوميّة العربيّة (الأمّة والدّولة في الوطن العربيّ- نظرة تاريخيّة)»، يوسف الشّويري، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط١، ٢٠٠٢.

-«كتابة التّاريخ بين فنّ السّرد والعلوم الدّقيقة»، فرانسواز ريفاز، ترجمة: باتسي جمال الدّين، «مجلّة فصول»، القاهرة، العدد ٦٧، صيف – خريف، ٢٠٠٥م.

-«كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون»، حاجي خليفة، اعتنى به: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠١٧م.

-«كيف نكتب التّاريخ»، بول فين، ترجمة: سعود المولى ويوسف عاصي، المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات، قطر، ط١، ٢٠١٣م.

-«مؤرّخو العرب والإسلام حتّى العصر الحديث»، برنارد لويس، وب. م. هولت، ترجمة: الدّكتور سهيل زكّار، دار التّكوين للنّشر، دمشق، ط١، ٢٠٠٨م.

-«مروج الذّهب ومعادن الجوهر»، أبو الحسن علي بن الحسين بن عليّ المسعوديّ (ت ٣٤٦هـ)، تحقيق: محمّد هشام النّعسان وعبد المجيد طعمة حلبي، دار المعرفة للطّباعة والنّشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

-«المعتمَد في أصول الدّين»، أبو يعلى الحنبليّ (ت ٣٥٨هـ)، تحقيق: وديع زيدان حدّاد، دار المشرق، بيروت، ط١، ١٩٧٤م.

-«معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)»، ياقوت الحمويّ، شهاب الدّين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق: إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلاميّ، ١٩٩٣م.

-«المُفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، الدّكتور جواد علي، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.

-«المكوّنات الأولى للثّقافة العربيّة»، الدّكتور عزّ الدّين إسماعيل، دار الشّؤون الثّقافيّة، بغداد، ط٢، ١٩٨٦م.

-«مِن النّصّ إلى الفِعل (أبحاث في التّأويل)»، بول ريكور، ترجمة: محمّد برادة، وحسّان بورقيّة، عين للدّراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.

-«منهج الطّبريّ في تاريخه»، د. محمّد آمحزون، عن موقع:

https://ketabpedia.

/%AD%D9%AA%D8%com/%D8

-«الوافي بالوفَيَات»، صلاح الدّين الصّفديّ، خليل بن أيبك بن عبد الله (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ٢٠٠٠م.

-«الوجود والزّمان والسّرد (فلسفة بول ريكور)»، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثّقافيّ العربيّ، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.